جامعة الأزهر الشريف

كلية الدعوة الإسلامية

دراسات في نظرية المعرفة

دكتور/ جمال السيد محمد

مدرس مقارنة الأديان

كلية الدعوة الإسلامية – جامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الذي خلقنا وعلمنا وجعل علامة إيماننا معرفته ومعرفة نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[2].

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ،صفاه وأنزل إليه وصية وعصمة، فأكد طريقاً جديداً للمعرفة وهو الوحي بجانب الحس والعقل، فبلغ صلى الله عليه وسلم الرسالة وأدى الأمانة، وهدي به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده وعبد

(١) سورة النحل: ٧٨.

(٢) سورة العلق: ١- ٥.

الله حتى آتاه اليقين من ربه، فصلوات الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا كثيرًا، وجزاه عنا أفضل ما جزي نبيا عن أمته.

وبعد:

فلا ريب أن من أولويات طلب العلم معرفة الباحث لمناهج المعرفة، واستيعابه لهذه المناهج الفلسفية والمعرفية السابقة ونقدها، وتمحيصها، فيتكون عنده عقل تحلي يميز به بين الأوهام والحقائق، وزيف الفكر وأصله، وهذه الدراسة التي بين أيدينا تهدف إلى تقديم فكرة عامة شاملة للخطوط العامة لنظرية المعرفة، فهي لا تتعمق في التفصيلات الدقيقة لاتجاه من الاتجاهات إلا بمقدار أهميته -لما ذكرته- وقد توخيت في هذه الدراسة أن يكون اعتمادي -بالنسبة لما ذكرته- على ما جاء في كتاب الله عز وجل عن نظرية المعرفة وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والبعد -قدر الإمكان- عن التصورات الفلسفية، وما أثاره القدماء من مسائل حول المعرفة فتكاد لا تمر نقطة من النقاط إلاَّ قارنتها بما جاء في الإسلام، أو ذكرت رأي الإسلام فيها، حيث إن القرآن الكريم يشتمل -في الوقت نفسه في إطار الهداية الربانية- على كثير من الإشارات والتوجيهات الإلهية الهادية للإنسان في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، فالمتأمل في آيات القرآن الكريم يستخرج منها أصول المعرفة بالحقائق الكبرى المتعلقة بالله عز وجل والكون والإنسان والقيم.

بالإضافة إلى أنه يجد في القرآن منهجا قويما لتحصيل المعرفة الحسية والعقلية، وهذا العمل -الذي ينبغي أن يقوم به العقل الفلسفي المسلم- قد أصبح اليوم ضرورة ملحة لإثبات الهوية الإسلامية، بعد أن ضاقت معالمها وكادت أن تذوب في خضم التيارات

الفكرية الوافدة فلا يجوز للعقل المسلم أن يكون مقلدا في محاولاته الفلسفية، بل ينبغي أن تتجه جهوده إلى القرآن الكريم في محاولة منه لاستخراج أصول المعرفة الإنسانية بحقائق هذا الوجود، متوصلا لهذه الحقائق على أسس قرآنية متينة، وهذا لا يتعارض إطلاقاً مع العقل الإنساني، ذولا يحرمه من استخدام حقه في البحث والدرس والتدقيق والتمحيص، بل إن التوجيهات القرآنية تعد مددا إلهيا يساعده ويقدم له العون ويسدد خطاه ويحميه من التخبط في دياجر الظلام [1].

ومن أجل هذا كان عنوان هذه الدراسة « دراسات في نظرية المعرفة» وقد جاء تناولي له على النحو التالي:

أولاً: المعرفة في اللغة والاصطلاح.

أ- المعرفة في اللغة.

ب- المعرفة في الاصطلاح.

ثانياً: تاريخ نشوء نظرية المعرفة.

ثالثًا: القرآن ونظرية المعرفة.

رابعًا: المسلمون ونظرية المعرفة.

خامسًا: أهمية البحث في المعرفة.

---

(١) انظر ما كتبه دكتور/ محمود حمدي زقزوق في مقدمة رسالة نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، دكتور/ راجح الكردي ص ٦- ٨، دكتور/ نجاح الغنيمي معالم تاريخ الفكر الفلسفي (١/ ٣).

سادسًا: أهم المباحث الرئيسية في المعرفة.

سابعًا: سبل المعرفة الإنسانية.

ثامنًا: أنواع المعرفة.

أ- المعرفة الحسية.

- المقصود بالمعرفة الحسية.

- أهمية المعرفة الحسية.

- مكونات المعرفة الحسية.

- مجالات المعرفة الحسية وخصائصها وتقييمها.

- موقف الإسلام من المعرفة الحسية.

ب- المعرفة العقلية.

- المقصود بالعقل في القرآن الكريم.

- مجالات المعرفة وتقييمها.

- خصائص المعرفة العقلية.

١- الضرورة.

٢- صدق التعميم أو الكلية.

- موقف الإسلام من المعرفة العقلية.

ج- المعرفة اللدنية (الإشراقية).

- الإشراق والصوفية.

- من وقف عند الإشراق.

- من قال بالإشراق كمرحلة.

د- المعرفة الوحيية.

- المراد بالوحي.

- الوحي في الاصطلاح.

- ضرورة الوحي في المعرفة.

- الوحي ممكن في نظر العقل.

- لا كفاية في العقل.

- الحاجة إلى الوحي في الاعتقاد.

- الحاجة إلى الوحي في التشريع.

- خصائص المعرفة الوحيية.

١- الاختصاص في طريقها.

٢- ربانية المعرفة النبوية في مصدرها.

٣- الثبات.

٤- التحول والتكامل والعموم والخلود.

٥- التوازن.

٦- الإيجابية.

٧- الواقعية أو العملية.

تاسعًا: نظرية المعرفة الإسلامية مميزاتها وثمرتها.

أ- المميزات.

- التلازم بين المعرفة والمنهج المستخدم.

- التناسب بين مجال المعرفة وبين إمكانية العقل.

ب- ثمرات التزام نظرية المعرفة الإسلامية.

- أن يكون مجال المعرفة في مقدور العقل الإنساني.

- التراهة وإنكار الذات.

- التثبت والتحقق في كل خطوة من خطوات تحصيل المعرفة.
- التأني في إصدار الأحكام.
- الثمرات الخلقية المتصلة بطالب المعرفة الإسلامية.
- اقتران المعرفة الإسلامية بالنية الصالحة والعمل النافع.
- عفة اللسان والقلم.
- الأمانة في نسبة الفضل لذويه.
- الاعتراف بمحدودية الإنسان والتواضع لله تعالى.
- الربط بين المعرفة والإيمان بالله تعالى.

عاشرًا: مدى حاجة البشرية للمعرفة الإسلامية.

المبحث الأول

المعرفة في اللغة والاصطلاح

أ- المعرفة في اللغة:

وردت كلمة المعرفة من مادة (عرف) لتدل على المجازاة، قال الزمخشري: لأعرفن لك ما صنعت أو لأجازينك به [١]، وفي حديث عوف بن مالك: « لترد نه أو لأعرفنكها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو لأجازينك بها حتى تعرف سوء صنعك».

والمعروف: ضد المنكر، والعرف: ضد النكر أولى عرفا أي معروفاً.

والمعروف: الجود، وقيل هو اسم ما تبذله وتسديه [٢]، ووردت كلمة عرف كذلك لتدل على كل ما هو عال مكرم طيب، فيقال للقوم إذا تلثموا غطوا معارفهم، وتقول بنو فلان عز المعارف [٣]، والمعارف الوجوه، والمعروف الوجه، لأن الإنسان يعرف به، والمعارف محاسن الوجه، وامرأة حسنة المعارف أي حسنة الوجه -ومعارف الأرض أوجهها وما عرف منها.

---

(١) أساس البلاغة، الزمخشري - مادة عرف، ص: ٤١٥، ٤١٦.

(٢) لسان العرب - ابن منظور- دار صادر بيروت - بدون رقم للطبعة وبدون تاريخ م ٩ حرف الفاء، ص ٢٣٧.

(٣) أساس البلاغة - الزمخشري - مادة عرف.

والعرف: الريح طيبة كانت أو خبيثة، ويكثر استعمالها مع الريح الطيبة، فيقال ما أطيب عرفه –وعرف الجنة أي ريحها الطيبة [١].

قال تعالى:

﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [٢].

والعرف أيضاً: عرف الديك والفرس والدابة وغيرها: منبت الشعر والريش للرأس أي نافشا عرفه، والجمع: أعراف وعروف.

والمعرفة بالقدح منبت عرف الفرس من الناحية إلى المنسح.

قال تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [٣].

وقيل: هو يقارن عرف الفرس أي يتتابعون كعرف الفرس.

والأعراف في اللغة: جمع عرف وهو كل عال مرتفع [٤].

قال تعالى:

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [١].

---

(١) لسان العرب – ابن منظور – مادة عرف م ٩، ص ٢٤٠.

(٢) سورة محمد: ٦.

(٣) سورة المرسلات: ١.

(٤) لسان العرب – ابن منظور م ٩، مادة عرف ص ٢٤١.

ويقصد بالمعرفة: العلم، فيقول الفيروز آبادي عن معنى الفعل (عرف) عرفه معرفة وعرفانا وعرفة بالكسر -وعرفان- بكسرتين، ألفه وعلمه فهو عراف وعريف وعروفه [٢].

يقول ابن منظور: ورجل عروف وعرفه: عارف يعرف الأمور لا ينكر أحداً منها، والهاء في عروفه للمبالغة والعريف والعارف بمعنى واحد مثل عليم وعالم [٣].

وأما عن معنى العلم يقول ابن فارس: العين واللام والميم: أصل صحيح واحد، يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، ومن ذلك:

- العلامة، وهي معروفة.
- والعلم: الراية، والجمع أعلام.
- والعلم: الجبل.
- والعلم: نقيض الجهل [٤].

---

(١) سورة الأعراف: ٤٦.

(٢) القاموس المحيط محيي الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي – المجلد الثاني الجزء الثالث ص١٧٨، مادة عرف ص ١٧٨.

(٣) لسان العرب – ابن منظور – م٩ مادة عرف ص ٢٣٦، وانظر مختار الصحاح – للإمام محمد بن أبي بكر الرازي – مادة عرف بدون رقم للطبعة وبدون تاريخ ص ٤٢٧.

(٤) معجم مقاييس اللغة م٤ ص ١٠٩.

وإذا كان الفيروز أبادي قد عرف «المعرفة» بأنها «العلم» -كما سبق- يعود هنا فيعرف «العلم» بأنه «المعرفة» يقول: علمه علماً -بالكسر-: عرفه [١]، وبها أيضاً عرفه الجوهري [٢].

وعلى ذلك فالعلم والمعرفة مترادفان لغة، ويعرف كلا منهما بالآخر، وهما «يعبران عن حالة تبدو في سكون العارف إلى الشيء المعروف وطمأنينته به» [٣].

وبتذوق اللفظ القرآني وتفهمه أدرك البعض أن بين المعرفة والعلم خصوصاً وعموما سواء من جهة اللفظ أو المعنى، يقول الأستاذ عبد الحكيم المغربي:

«المعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، وهي أخص من العلم، ويقال: فلان يعرف الله ولا يقال يعلم الله، متعديا إلى مفعول واحد، وعرفه يعرفه معرفة وعرفانا، فهو عارف، والعلم والمعرفة يفرق بينهما من جهة اللفظ، ومن جهة المعنى، أما عن جهة اللفظ ففعل المعرفة يقع على مفعول واحد، تقول: عرفت الديار.

قال تعالى:

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾[١]. وقال سبحانه: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾[٢]، وفعل العلم يقع على مفعولين كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ

(١) القاموس المحيط - المجلد الثاني - الجزء الربع، ص ١٥٥ مادة « علم ».
(٢) الصحاح: الجوهري ج ٥ ص ١٩٩٠، مادة « علم ».
(٣) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي - دراسة نقدية في ضوء الإسلام- د/ عبد الرحمن بن زيد الزبيدي - ص ٣٨.

مُؤْمِنَاتٍ﴾[٣]، وإذا وقع على فعل متعدي لمفعول واحد كان بمعنى المعرفة، كقوله تعالى: ﴿ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٤].

وأما من جهة المعنى:

فأولها:

أن المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحوال الشيء، فتقول: عرفت أباك وعلمته صالحاً، ولذلك جاء الأمر في القرآن الكريم بالعلم دون المعرفة كقوله تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [٥].

وقوله تعالى:

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [٦].

فالمعرفة تصور الشيء والعلم حضور أحوال الشيء وصفاته ونسبتها إليه، فالمعرفة نسبة التصور، والعلم نسبة التصديق.

---

(١) سورة يوسف: ٥٨.

(٢) سورة البقرة: ١٤٦.

(٣) سورة الممتحنة: ١٠.

(٤) سورة الأنفال: ٦٠.

(٥) سورة محمد: ١٩.

(٦) سورة هود: ١٤.

ثانيها:

إن المعرفة في الغالب تكون لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل عرفه.

أو تكون لما وصف له بصفات قمت في نفسه، فإذا رآه وعلم أنه الموصوف بها، قيل: عرفه.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (١).

فالمعرفة: نسبة الذكر في النفس، وهو حضور ما كان غائباً عن الذاكر، ولهذا كان ضدها الإنكار، وضد العلم الجهل.

قال تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢).

ويقال: عرف الحق فأقر به، وعرفه فأنكره.

ثالثها:

إن المعرفة تفيد تمييز المعروف عن غيره، والعلم يفيد تمييز ما يوصف به عن غيره.

رابعها:

---

(١) سورة يوسف: ٥٨.

(٢) سورة النحل: ٨٣.

إنك إذا قلت: علمت محمداً، لم تفد المخاطب شيئاً؛ لأنه ينتظر أن تخبره على أي حال علمته، فإذا قلت: كريماً أو شجاعا، حصلت له الفائدة، وإذا قلت: عرفت محمداً استفاد المخاطب أنك أثبته وميزته عن غيره، ولم يبق أن ينتظر شيئاً آخر.

خامسها:

إن المعرفة علم بعين الشيء مفصلا عما سواه، بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مجملا ومفصلا.

والفرق بين العلم والمعرفة عند المحققين هو أن المعرفة هي العلم الذي يقوم العالم بموجبه ومقتضاه فلا يطلق المحققون المعرفة على مدلول العلم وحده [١].

ب- أما في الاصطلاح: فيذهب صاحب المعجم الفلسفي إلى أن مصطلح نظرية المعرفة يرادفه (الابستمولوجيا) وهي فلسفة العلوم [٢].

(١) المعرفة في ظل الإسلام -عبد الحكيم المغربي- ص ١١٣، وما بعدها. راجع: الصوفية والعقل د/ محمد عبد الله الشرقاوي -دار الجيل- بيروت ١٩٩٥ م، من ص ١٨٧ وما بعدها.

(٢) المعجم الفلسفي -د/ جميل صليبا- (٢/ ٧٣)، نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة - د/ عادل السكري - ص ٢٨.

وهذا المصطلح مركب من لفظين:

أحدهما: نظرية أو تركيب عقلي مؤلف من تصورات منسقة [١] تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، كما أنها تطلق على ما يقابل الممارسة العملية في مجال الواقع، كما أنها تطلق على ما يقابل المعرفة العلمية، تلك المعرفة التي تتقيد بالنتائج العملية، وتظل بمعنى ما جزئية، أي: إنها تدل على ما هو موضوع تصور منهجي منظم ومتناسق، تابع في صورته لبعض المواصفات العلمية التي يجهلها الناس.

وثانيهما المعرفة: سبق تعريفها.

وعلى هذا فنظرية المعرفة إذن: هي دراسة منهجية منظمة لقضية العلم أو مسألة دراسة ماهية المعرفة وإمكانها، وطبيعتها وطرق الوصول إليها وقيمتها وحدودها.

ويقال هذا المصطلح باليونانية مصطلح «الابستمولوجيا» وهو مصطلح يوناني يتكون من lpistmo ومعناه معرفة logos معناه نظرية فمعنى الكلمة في مجموعها نظرية المعرفة.

---

(١) المعجم الفلسفي – د/ جميل صليبا (٢/ ٧٣) نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة – د/ عادل السكري ص ٢٨.

إذن فمعنى بستمولوجيا -على نظرية العلوم أو فلـ نة العلوم -دراسة مبادئ العلوم وفريضتها ونتائجها دراسة نقدية توصل إلى إبراز أصلها المنطقي وقيمتها الموضوعية [١].

بينما يرى آخرون ضرورة التفريق بين فلسفة العلوم ونظرية المعرفة حيث إن عندهم فلسفة العلوم هي «مبحث نقدي في مبادئ العلوم وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ وينبغي التمييز بين فلسفة العلوم ونظرية المعرفة» [٢].

وقيل: إنها البحث في المعرفة التي تم لنا اكتسابها، وهي تبحث في المعقولات العامة التي تشترك أغلب العلوم الجزئية في الانتفاع بها [٣].

وذهب البعض إلى أن المعرفة: إدراك علاقة الارتباط والاتفاق أو التقابل وعدم الاتفاق وإلى هذا الرأي ذهب لوك.

وقيل المعرفة: إدراك يجمع بين العلم والإيمان [٤].

إن هذا المصطلح (نظرية المعرفة) يقصد به معنيان معنى واسع وآخر ضيق.

---

(١) المعجم الفلسفي - د/ جميل صليبا (١/ ٣٣) نظرية المعرفة - د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ٢٤ وما بعدها - نظرية المعرفة بين القرآن في الفلسفة - د/ راجح الكردي - المعهد العالمي للفكر الإسلامي ص ٦٣.

(٢) المعجم الفلسفي - مراد وهبة وآخرون- ص ١٦٤.

(٣) المعرفة - د/ محمد فتحي الشنيطي - ص ٦٧.

(٤) العلم والإيمان مدخل إلى نظرية المعرفة في الإسلام - دكتور/ إبراهيم عمر - ص ٧٢.

أما المعنى الواسع المفهوم:

فإنه يشمل كل البحوث الفلسفية الهامة التي تتعلق بظاهرة المعرفة، مثل المنطق وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء، وعلم الاجتماع، والتاريخ وميتافيزيقا المعرفة، أما المعنى الضيق والحقيقي لهذا المفهوم الفلسفي فيراد به « العلم الذي يبحث في ماهية المعرفة ومبادئها وأصولها ومنابعها وشروطها ونطاقها وحدودها [١].

والتعريف المختار -من كل ما سبق- لنظرية المعرفة: أنها دراسة منظمة أو بحث في المعرفة من حيث أصلها، وماهيتها، وإمكانها، وطرق الوصول إليها: وطبيعتها وحدودها وقيمتها، أي بحث في المشكلات الناشئة عن العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف، والبحث عن درجة التشابه بين التصور الذهني والواقع الخارجي.

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة - د/ محمود حمدي زقزوق- دار الفكر العربي ط ٣، ١٩٩٣، ص ١٥٨.

المبحث الثاني

تاريخ نشوء نظرية المعرفة

لم يظهر البحث في مشكلة المعرفة بوضوح مع بداية الفلسفة اليونانية في عصر ما قبل سقراط، فقد كانت البحوث الفلسفية للفلاسفة الأوائل في ذلك العصر معنية أساسا بالبحث في الوجود الخارجي بهدف الكشف عن الحقيقة فيه، ولم تتجه عنايتهم إلى البحث في صدق وسائل المعرفة وحدود إمكانياتها فقد وضعوا ثقتهم في قدرة العقل الإنساني على المعرفة، وأقاموا نظامهم الفلسفي دون أن يفكروا في مشكلة المعرفة، حتى جاء السوفسطائيون فكانوا أول من لفت الأنظار إلى هذه المشكلة، وأشاع جورجياس بقضاياه المشهورة جوا من الشك والارتياب في قدرة العقل الإنساني على المعرفة [1].

ومنذ ذلك الحين أصبح -للبحوث- المتعلقة بالمعرفة- مكان في كل فلسفة، ولكن هذه البحوث كانت مختلطة بغيرها من بحوث الفلسفة، فقد أدخل أفلاطون بحوث المعرفة فيما أطلق عليه اسم الجدل، وضمنها أرسطو في دراساته فيما بعد الطبيعة دون أن يميز بين موضوع المعرفة وموضوع الميتافيزيقا، ولم يضع منهما حدودا فاصلة بين البحوث المتعلقة بالمعرفة، وبحوث ما بعد الطبيعة، ولا بين بحوث المعرفة والبحوث المنطقية البحتة، وكان أهم ما أثاره القدماء من مسائل حول المعرفة يتركز حول العلم الحقيقي واليقيني المسلم به تسليمًا مطلقاً.

---

(١) مدخل إلى الفكر الفلسفي -بوخينسكي - ترجمة د/ محمود حمدي زقزوق- مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٠- ص ٤٧ وما بعدها.

وقد ظل الحال على ذلك أيضاً في فلسفة العصر الوسيط إلى أن جاء العصر الحديث فأفرد لمشكلة المعرفة مكاناً خاصاً، وتناول الفلاسفة هذه المشكلة -منذ ذلك الحين- بعمق وتفصيل بوصفها مشكلة قائمة برأسها، وقد كان «جون لوك» أول من وضع الأساس للبحث في هذه المشكلة، فقد قام بتحديد معالمها، وبيان أبعادها، واشتملت بحوثه فيها على تحليلات دقيقة حاول فيها رد المعارف الإنسانية إلى عناصرها الأولى، وبذلك وضع «لوك» هذه المشكلة لأول مرة في صورة علم مستقل، وكان كتابه في هذا الصدد «دراسة في العقل البشري»، أول بحث علمي منظم في أصل المعرفة وماهيتها وحدودها ودرجة اليقين فيها [1].

وقد كانت الدراسة التي عرضها «لوك» في هذا الكتاب نتيجة بحث فلسفي دام سنوات عديدة، وفي البداية - في الرسالة الموجهة من لوك إلى القارئ- يتحدث عن قصة هذا الكتاب، فيذكر أنه كان من عادته أن يلتقي في بيته بعدد من أصدقائه للتباحث في مسائل فلسفية، ولكنهم لم يتوصلوا إلى نتائج تذكر نظراً للصعوبات البالغة التي واجهتهم من كل جانب والتي أدت بهم إلى طريق مسدود، ثم يضيف قائلاً:

وبعد أن بذلنا جهدا ووقتا طويلاً دون أن نقترب بأي شكل من الأشكال من حل للشكوك التي تؤرقنا، خطرت في ذهني فكرة مؤداها أننا قد سلكنا مسلكا خاطئاً، وأنه كان من الضروري قبل البدء في مثل هذه البحوث أن نقوم باختبار ملكاتنا العقلية

(١) دراسات في الفلسفة الحديثة - د/ محمود حمدي زقزوق- ص ١٥٦.

لنرى أي الموضوعات تناسب عقولنا لمعالجتها، وقد طرحت هذه الفكرة على المجتمعين الذين رحبوا بها، واتفقنا على أن هذه المسألة ينبغي أن تكون أولى المسائل في بحثنا [١].

وقد توفر للوك بعد ذلك القدرة على اختبار العقل البشري لمعرفة مدى صلاحيته لاكتساب المعرفة وحدود هذه الصلاحية، ولم يكن بحثه منصباً على طبيعة العقل ذاته – كما يمكن أن يتبادر إلى الذهن– وإنما أراد من وراء دراسته أن يتعرف على الطريقة التي يصل فيها العقل إلى تكوين أفكاره، إنه يريد دراسة وسائل المعرفة الصحيحة.

وهكذا أدرك لوك أن الجهود ينبغي أن توجه أولاً إلى بحث مشكلة المعرفة، أي مشكلة قدرات العقل، قبل القيام بأية أبحاث ميتافيزيقية [٢].

(١) نقلاً عن دراسات في الفلسفة الحديثة – د/ محمود حمدي زقزوق – ص ١٥٦، ١٥٧.

(٢) راجع في ذلك مبادئ الفلسفة أ. س. رايوبرت ترجمة أحمد أمين – دار الكتاب العربي – بيروت ص ١٩٨، ١٩٩.

المبحث الثالث

القرآن ونظرية المعرفة

لا ريب أن كل من يلقي نظرة فاحصة على القرآن الكريم ويتأمل في آياته يعرف أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل الفلسفة في البيئات العربية، بل هو أول كتاب سماوي فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضاً، وأوجب عليهم التفكر في أسرار الكون [١] وخفايا الوجود، ووصف المتأملين في هذا بأنهم وحدهم أولو الألباب، ورمي الذين لا يتدبرون بأنهم لا يعقلون، وقد أراد بهذا الحض الحازم أن يصل المؤمنون بهذا التفكير إلى معرفة المبدع الأول ووحدانيته وكماله وإلى الإيمان به عن طريق العقل، لا عن طريق التقليد.

قال تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [٢].

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١].

---

(١) راجع من كتاب نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة ص ٦٤، نظرية المعرفة د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ١٥٧، وما بعدها.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٥.

وقال جل وعلا:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (٢).

وقال سبحانه:

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى:

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة ق: ٦- ٨.

(٣) سورة النحل: ١٠- ١٣.

(٤) سورة الشورى: ١١.

وقال تعالى:﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [٢].

ولما كان العقل أعلاها، والفكر أسمها «أول ما خلق الله العقل فقال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، ثم قال له عز وجل وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب» [٣].

(١) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٢) سورة يس: ٤٠.

(٣) نظرية المعرفة - د/ محمد إبراهيم الفيومي ص ١٥٠- ١٥١.

المبحث الرابع

المسلمون ونظرية المعرفة

وقد استوقف هذا الموضوع -نظرية المعرفة- علماء المسلمين فلاسفة ومتكلمين، وتأثروا -في بحثهم له، حتى وفي تصنيفهم له- بالفكر اليوناني، مما سمي بالفلسفة التوفيقية، ولا أدل على هذا الاهتمام بنظرية المعرفة -عند المتكلمين المسلمين، أكثر من أنهم عقدوا أبواباً وفصولا، بل كتباً في العلم والمعرفة.

فالقاضي عبد الجبار المعتزلي (ت ٤١٥هـ) صنف مجلدا كبيراً، يقع في خمسمائة وتسع وثلاثين صفحة، من موسوعته الكلامية « المغني في أبواب التوحيد والعدل »، سماه «النظر والمعارف».

ويتحدث فيه بالتفصيل عن حد النظر والعلم والمعرفة وطرقها وحقيقتها، وطرق معرفة صحة النظر، ودرجات المعرفة من الشك إلى الظن وإلى اليقين، ويتحدث عن الدليل العقلي والسمعي وأول ما يجب على المكلف، وطريق وجوب المعرفة [١].

وفي نفس الوقت يقوم مفكر أشعري، وهو الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) فيقدم لكتابه «التمهيد» بباب العلوم في «العلم وأقسامه وطرقه» [٢].

---

(١) القاضي عبد الجبار - المغني في أبواب التوحيد والعدل (النظر والمعارف) ج ١٢.

(٢) التمهيد: البلاقاني ط بيروت سنة ١٩٥٧- ص ٦- ١٦.

ويحذو حذوهما البغدادي (ت ٤٢٩هـ) في كتابه «أصول الدين» فيجعل الأصل الأول منه معقودا على بيان الحقائق والعلوم وإثباتها وطرق تحصيلها وأقسامها[١].

والرازي [٢] أيضاً يجعل الركن الأول من كتابه « المحصل » في العلم والنظر كما يجعل الإيجي الموقف الأول من كتابه «المواقف» في العلم والنظر كذلك، يجمع فيه آراء المدارس الكلامية والفلاسفة ويناقشها، ويراجع رأي الأشاعرة [٣].

هذا فضلاً عن بيان هذه النظرية في مقالات الفرق، كالمقالات لأبي القاسم البلخي المعتزلي [٤]، ومقالات الإسلاميين للأشعري [٥]، والفرق بين الفرق للبغدادي[٦]، والغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال».

وقد كانت نظرية المعرفة عند الفلاسفة الأقدمين، مبثوثة متفرقة، في ثنايا أبحاث الوجود والقيم، بل لم يكن يجمعها كتاب واحد أو دراسة منهجية مستقلة، فقد كانت متضمنة مثلاً عند أفلاطون في أبحاثه عن الجدل، وعند أرسطو في بحث ما وراء الطبيعة، دون أن يميزوا بين موضوع المعرفة وموضوع «الميتافيزيقا» إلا أنهم بحثوا في أهم

---

(١) كتاب أصول الدين –البغدادي، ط ١ ص ٤– ٣٤.

(٢) تحصيل أفكار المتقدمين والمتأخرين والفلاسفة والمتكلمين – الرازي ط القاهرة سنة ١٣٢٣ ص ٢– ٣٣.

(٣) المواقف بشرح السيد الجرجاني – الأيجي– طبعة القسطنطينية – سنة ١٢٨٦هـ ص ١١– ٨١.

(٤) المقالات – أبو القاسم البلخي – مخطوط – مكتبة خاصة.

(٥) مقالات الإسلاميين – الأشعي– تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد – جزءان ط٢ دار النهضة المصرية– القاهرة سنة ١٩٦٩.

(٦) الفرق بين الفرق – البغدادي– طبعة محمد علي صبيح القاهرة.

جوانب المعرفة، لعل علماءنا المسلمين قد سبقوا غيرهم في إفراد بحث المعرفة بصورة مستقلة في كتبهم؛ لأهمية هذا الموضوع بالنسبة لهم، وعلاقته بالوجود، بينما لم يبدأ إفرادها عند الفلاسفة الغربيين إلا في القرن السابع عشر، حيث يعتبر مؤرخو الفلسفة أن كتاب «مقالة في الذهن البشري» Essay Concering Human (Understanding) الذي ألفه « جون لوك » (١٦٣٢- ١٧٠٤) الفليسوف الإنجليزي، والذي طبع سنة ١٦٩٠ بمثابة أول محاولة لفهم المعرفة البشرية، وتحليل الفكر الإنساني وعملياته [١]، وعن سبقه بذلك كثيرين أهمهم «ديكارت» في نظرية فطرية المعرفة، ثم كانت محاولة فريير [٢] Ferrier في القرن التاسع عشر، ففصل بحث المعرفة عن بحث الوجود، ثم اتخذت نظرية المعرفة وضعا جديداً يتفق واستقلالها بموضوعها الخاص بها، واهتمت بمسائل جديدة، مثل العلاقة بين الذات العارفة والموضوع المعروف، وبين العقل والشيء الخارجي، وأثر كل منهما في عملية الإدراك، وكذلك العلاقة بين الماهية والوجود، والنظر في حدود المعرفة الإنسانية، وقيمة الأدوات التي تحصل بها المعرفة، كالحواس والعقل والحدس والذوق [٣].

(١) الفلسفة – هنترميد ص ١٧٥.

(٢) أ. و. بن: تاريخ الفلسفة الحديث ص ٩٣.

(٣) من كتاب: راجع الكردي من ص ٦٤ وما بعدها بتصرف.

المبحث الخامس

أهمية البحث في المعرفة

يحتوي القرآن على أسس واضحة في طرق المعرفة، فقد قال تعالى:

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (١).

ويقول تعالى أيضاً:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

فمصدر هذه المعرفة أو منبعها هو الله سبحانه وتعالى، حيث قال عز وجل:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ

---

(١) سورة السجدة: ٩.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

(٣) سورة العلق: ١- ٥.

﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ (١).

فقد ذكر القرآن طرق المعرفة ووسائلها من حواس وعقل أو قلب وأضاف طريقاً فريدا ليس في طرق البشر، وهو طريق الوحي والإلهام.

وتعرض لطبيعة المعرفة، وأنها اكتسابية كلها.

قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (٢).

وقال سبحانه: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣).

وتعرض لصور الاكتساب من تفكير وتذكير وفقه وشعور.. الخ.

وبين مجالات هذه المعرفة: المجال الطبيعي أو عالم الشهادة، ويدرك بالحواس والعقل، وعالم الغيب وطريقة الوحي، والعقل يسلم بوجوده، ويفهم وفق ما سمح الله له من طاقات، وتفاصيله غيب لا يعلمه إلا بإعلام الله لنا عن طريق الوحي.

---

(١) سورة البقرة: ٣١- ٣٢.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

(٣) سورة العلق: ٥.

وبين غاية المعرفة في الوجود الإنساني فجعلها تخدم هدف تعبيد الناس لله اعتقاداً وعبادة، علماً وعملا قال سبحاه وتعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

كما جعلها أساسا لقيادة البشرية والقيام بدور الخلافة في الأرض، وحمل أمانة الهداية والانتفاع بالكون الذي سخره الله للإنسان.

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾(٣).

القرآن دعوة لتحرير العقل الإنساني، من أغلال التقليد والتبعية القائمة على أسس الوراثة فحسب، والتي عزلت العقل عن عمله والقلب عن فقهه، ومن ثم فهو يدعو الإنسان إلى التأمل والتفكر، ويوجه نظره إلى الكون، وإلى النفس ويمدح المتفكرين والمتذكرين وأولي الألباب، ويشنع على الذين لا يفقهون، ولا يعلمون، ولا يتذكرون، ويصفهم بعمى البصيرة أو القلوب.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(١).

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة لقمان: ٢٠.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

ثم جمع القرآن بين طرق المعرفة الرئيسية الثلاث معا، الوحي، والعقل، والحس، كما جمع بين مجالي المعرفة وهما مجالا الوجود الدنيا والآخرة، أو عالم الشهادة وعالم الغيب في آية واحدة، فقال سبحانه:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٣].

والقرآن يقرر نسبية المعرفة الإنسانية فيقول:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[٤]، فقال سبحانه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٥].

ويجعل القرآن اليقين معياره في المعرفة، ويرد الشك والظن، ولا يعتبرهما صحيحين:

---

(١) سورة الحج: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٥.

(٣) سورة يوسف: ١٠٩.

(٤) سورة يوسف: ٧٦.

(٥) سورة الإسراء: ٨٥.

قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى﴾[١].

وقال عز وجل: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[٢].

كل هذه الأسس يمكن أن تكون بناء للنظرية في المعرفة، من حيث ماهيتها وإمكانها ومصادرها وطبيعتها وطرقها ومعيارها وقيمتها.

لا ريب أن البحث في المعرفة من أهم الأمور في حياة الإنسان فالمعرفة أعلى وظيفة للإنسان في الوجود، وهل الاعتقاد أو الإيمان والدين إلا علم ومعرفة؟ وكيف لا تكون المعرفة مهمة وهي ميزة الإنسان، وأساس ومنهج ومادة استخلافه في الأرض، ومركزه في الكون الذي سخره الله له كي يؤدي فيه وظيفة العبادة لله وحده، ويقود مسيرة المعرفة الواعية المسبحة لله، مع سائر الموجودات.

قال تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٣].

فالمعرفة إذن ميزة ووظيفة، كما أنها تفسير شامل تحمله الكينونة الإنسانية ملبية هتاف فطرتها، في معرفة نفسها ومعرفة ربها، والتعامل مع الواقع الذي تحياه في الكون الذي تعمره.

---

(١) سورة النجم: ٢٣.

(٢) سورة النجم: ٢٨.

(٣) الإسراء: ٤٤.

ولقد تاهت البشرية، في ركام من التصورات الفلسفية، في محاولة تحديد وصياغة لهذه المعرفة، ذلك لأنها كانت تبحث عن حقيقة المعرفة بطريق العقل، والعقل نفسه عاجز عن أن يعرف حقيقة نفسه، فكيف يستطيع أن يقدم لنا تفسيرا لمعرفة كل شيء مخلوق، فضلا عن أن يقدم لنا معرفة دقيقة سليمة بالخالق سبحانه؟ وهو سبحانه:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

ومن هنا كانت حاجة البشرية إلى علم سليم، وتفسير دقيق، موحد معصوم، كامل يمن الله به على هذا الإنسان، فيأخذ بيده ويوجهه تعليما بعد أن خلقه ولم يكن شيئا مذكورا، وجعل فيه –من الاستعدادات والقابلية والوسائل والكينونة المعرفية المؤسسة على القدرة– علة التعلم؛ ليقوم الإنسان بدوره العبادي القائم على دوره المعرفي في الحياة، كما قال سبحانه:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3].

(١) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٢) سورة الإنسان: ١– ٣.

(٣) سورة النجم: ٢٨.

والقرآن الكريم هذا العلم الذي يلزم الإنسان إذ هو منهج الله خلقه، يدعو إلى معرفة موحدة، تجمع بين نور الوحي المنزل على رسول الله للبشر كافة، ونور الفطرة المؤسسة للمعرفة تأسيسا يؤهلها لإثبات النبوة وفهم الشرع.

والقرآن مليء بالآيات الموقظة لهذه الفطرة، المدعمة لدورها المعرفي في الحياة، المعمقة لأصالتها، الداعية إلى النظر والتفكير والفقه والتدبر والتعقل والذكر والتذكير.

ولقد امتثل المسلمون دعوة القرآن هذه، لإعمال الكينونة العارفة في الإنسان، فهما وتفسيرا، فامتلأت الحياة الإسلامية، بالعلوم والمعارف التي تعالج شتى نواحي الحياة، وما من علم إلا وكان خادما لهدف هذا الدين من توجيه الناس إلى ربهم، وزيادة يقينهم به، وتسهيل مهمة استخلاف الإنسان في الأرض.

ولقد ساهم الفكر الجديد المتمثل في أبحاث المتكلمين المسلمين، في الدفاع عن قضايا الاعتقاد، في وجه الخارجين على عقيدة الإسلام والمفتونين بفلسفة الإغريق، وكان هؤلاء يحاولون أن يمثلوا النظرة القرآنية، ولكن بأسلوب العقل ومناهجه التي ترد على الخصم.

وحقيقة الأمر أن القرآن هو العلاج الوحيد الذي يعطي هذا الإنسان ليكون خليفة في الأرض، وليكون قائدا لطريق التحرير فيها، تحرير الإنسانية كلها من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده لا شريك له، ومن ثم فإن القرآن وهو يتحدث عن خلق الإنسان إنما يعطي المعرفة اللازمة وبقدر ما تهيئ هذا الإنسان لمهمته في الحياة، وما يجري في الكينونة الإنسانية من حركات وارتباطات سواء في مجال الخلق أو في مجال المعرفة وسواء في خلاياه وحقيقة ما يجري في جوانب نشاطه الفسيولوجي أو العضوي أو في حقيقة نشاطه العقلي والمعرفي أو ما يجري في حقيقة روحه ونفسه.

ومن ثم فالمعرفة الحقيقية للإنسان من خالقه ومعلمه هي الضمان الوحيد للمنهجية الصحيحة في البحث، إذ إن فيها ضمانا من التجرؤ الإنساني على هذا الإنسان – المخلوق– وفيها الضمان الأكيد للحيلولة دون تمزيق هذه الفطرة الإنسانية وتجزئتها إلى قطع تخالف الواقع المتكامل للكينونة الإنسانية، وفيها الضمان للتناسق في البحث والمعرفة على أساس قويم من معرفة الإنسان بحقيقته من جهة خالقه، بل بما يلزمه من هذه الحقيقة بتقدير خالقه، فهي معرفة صادقة ويقينية عن الإنسان؛ لأن الله الذي خلق وهو أعلم به كما قال سبحانه:

﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾[1].

وقال سبحانه:

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[2].

والمعرفة التي أفسح الله لها المجال بالنسبة لهذا الإنسان هي ميزته على سائر المخلوقات كما أنها الإمكانية الكبرى التي ينفرد بها وطاقاته الإنسانية المعرفية وإن كانت طوع إرادته بعد أن خلق الله له أدواتها وقواها إلا أنها راجعة إلى الله سبحانه، وله الحق سبحانه في توجيهها عن طريق الوحي لضمان القيام بالخلافة في الأرض.

(١) سورة النجم: ٣٢.

(٢) سورة البقرة: ٢٥٥.

واليوم ونحن نعيش أزمات كثيرة، من أخطرها أزمة الفكر بين الأصالة والتغريب، وبين القديم والحديث، نجدنا أحوج ما نكون إلى وقفة هادئة، نصدق فيها مع فطرتنا، ونتوجه بها إلى ربنا، ونستأنف على هديها مسيرتنا، داعين إلى صياغة جديدة لمجتمعنا الذي ابتلى بهجمات التجهيل من ناحية وهجمات الاستشراق والاستغراب من ناحية أخرى، ونواجه على أساسها هذه الهجمات، فندعو إلى هذا الدين حلا لكل أزمات الأمة في الاعتقاد والمعرفة والقيم، وندعو إلى الأصالة مع الرد الحاسم على كل فلسفة أو فكر خارج عن هدي الله [1].

(١) نظرية المعرفة القرآنية الفلسفية – د/ راجع الكردي ص ١٢ وما بعدها بتصرف.

المبحث السادس

أهم المباحث الرئيسة في المعرفة

إمكان المعرفة وحدودها:

ويبحث في مدى قدرة الإنسان على تحصيل المعرفة والمدى الذي يستطيع الحصول عليه فيها، ويختلف الإمكان بين الشكاك الذين ينكرون أي قدرة لتحصيلها وبين الموقنين بقدرة الإنسان على الوصول إلى الحقيقة ولعل أول من أثار هذا البحث السوفسطائيون والشكاك.

مصادر المعرفة:

حيث يناقش أصل المعرفة ومنبعها وهو يختلف بين الحسيين، والتجريبيين، والعقليين، وطريق الوحي عند أصحاب الأديان، وطرق أخرى كالإلهام والكشف والحدس.

طبيعة المعرفة:

وتقوم أبحاثها على بيان طبيعة العلاقة بين الذات العارفة والشيء المعروف، وتناقش معنى المعرفة وماهيتها واختلافها بين الواقعيين والمثاليين.

قيمة المعرفة وحدودها:

وتناقش أهمية المعرفة والصلة بينها وبين الوجود وموقف كل منهما بالنسبة للآخر.

وهناك أبحاث قريبة من نظرية المعرفة، قد يدمجها البعض فيها وقد يفصلونها عنها.

ومن هذه الأبحاث:

أبحاث علم المنطق الذي هو علم يضع قواعد الاستدلال الصحيح والقوانين التي تعصم -مراعاتها- الذهن عن الخطأ في الفكر، ونظرية المعرفة هي العلم الفلسفي بطبيعة المعرفة والحقيقة، فالحكم على صحة عملية الاستدلال أو الصوب من شأن نظرية المعرفة، وبمعنى آخر فإن نظرية المعرفة تبحث في المبادئ المادية للمعرفة ويبحث علم المنطق في مبادئها الصورية.

وحقيقة الأمر أن كلا من نظرية المعرفة وعلم المنطق، يدوران حول الحقيقة [1]، فنظرية المعرفة بحث يتضمن البحث عن الحقيقة أي عن الوسائل المختلفة، التي يتخذها الإنسان ليصل إلى الحقيقة، وتحديد مصادرها، وطبيعتها وتحديد طابعها المثالي أو الواقعي أو المادي، بينما يقوم علم المنطق بالبحث في بناء الحقيقة ونسقها، وأهم ما يميز هذا البحث، أنه يجعل الفكر -ذاته- ذاتا وموضوعا لبحثه، بدلاً من أن يتخذ العالم أو الأشياء الخارجية موضوعا لهذا البحث.

وننوه إلى أن فلاسفة المسلمين ومتكلميهم حينما بحثوا في نظرية المعرفة جمعوا إليها علم المنطق كعلم للحقيقة، يعالج قوانين الفكر، إلا أنهم لم يفصلوه عن البحث عن الحقيقة أو عن نظرية المعرفة، حيث كان اهتمامهم بالواقع الخارجي يسير مع اهتمامهم بالنسق الفكري المنطقي، على خلاف ما لجأ إليه الفلاسفة الغربيون بعد ذلك، حتى جاء ديكارت وجمع بين الرأيين في بحثه عن الحقيقة إذ جمع معيار مطابقتها للواقع مع معيار اتساق الفكر مع نفسه.

---

(١) د/ يحيى هويدى - الفلسفة الوضعية المنطقية في الميزان - مكتب النهضة المصرية- القاهرة سنة ١٩٧٢ ص ١٣- ١٧.

كما أن لأبحاث علم النفس صلة بنظرية المعرفة؛ لأن علم النفس يعالج مسائل التذكر والتخيل والتصور والتعرف والإدراك وسائر العمليات العقلية، في حين أن نظرية المعرفة تعالج هذه المسائل، ولكن علم النفس يهتم بوصف العمليات الشعورية وتفسيرها في علاقتها بالحوادث الشعورية دون الفحص عن فسادها أو صحتها بينما تهتم نظرية المعرفة بالإدراكات من حيث صلتها بالموضوعات الخارجية [١].

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – د/ راجح الكردي ص ٦٧، وما بعدها بتصرف – نظرية المعرفة– د/ محمد الفيومي ص ٢٩ وما بعدها.

المبحث السابع

سبل المعرفة الإنسانية

يمكن أن نقسم المعرفة الإنسانية المستوحاة من القرآن الكريم إلى قسمين: خاصة ومكتسبة.

١- المعرفة الخاصة:

إذا كان سبيل المعرفة للإنسان كائنا من كان هو عن طريق الحواس، فإن هناك سبلا خاصة قصرها رب العالمين على من اختاره من أنبيائه ورسله وخاصة أوليائه، وهذه السبل يمكن حصرها بما يأتي:

الوحي: الوحي كلمة لها معان عدة، منها ما يعلمه رب العالمين للإنسان مباشرة عن طريق الوحي، والوحي في الاصطلاح الشرعي معناه الرسالات السماوية التي يكلف بها نبي مختار من عباد الله ليعمل بها أو مخاطبا رسوله الكريم حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (١).

وقوله أيضاً: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (٢).

وقد ميز القرآن الكريم بين ما يمكن للإنسان أن يعلمه عن طريق الوحي من جهة، وبين علم الغيب الذي لا يعلمه إلا من جهة أخرى ولم يطلع عليه أحداً من عباده، فهو القائل مخاطبا للنبي الأمين:

---

(١) سورة الشورى: ٧.

(٢) سورة النساء: ١٦٣.

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (١).

وقوله تعالى في السياق نفسه:

﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

وهذا الوحي يأتي في اليقظة كما كان يحدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد يكون عن طريق المنام، كما حدث لسيدنا إبراهيم الخليل مع ولده إسماعيل.

قال تعالى على لسانه:

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٣).

وقد يكون وحي الله لبعض خلقه بمعنى (الإلهام) كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (٤).

---

(١) سورة الأنعام: ٥٠.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٨.

(٣) سورة الصافات: ١٠٢.

(٤) سورة القصص: ٧.

وقد يكون الإلهام لغير الإنسان، كما في قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [١]. أي ألهمها بناء بيوتها المسدسة العجيبة [٢].

العلم اللدني:

والمعرفة اللدنية هي التي يكرم بها الله خاصة أوليائه لأمر يريده لهم تكريما، فلا يتباهون به ولا يتخذونه مطية لجاه في الحياة الدنيا.

ومن العلم اللدني ما أعطى للخضر عليه السلام حيث أكرمه الله تعالى بعلم خصه به لإخلاصه في عبوديته له، فهذا العلم الرباني مقصور على من خصه الله بالقرب والولاية والكرامة [٣]، ويرى أبو السراج أن هذا العلم خص به الخضر عليه السلام في قوله تعالى:

﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [٤].

٢- المعرفة المكتسبة:

تلك هي المعارف التي وهبها الله لخاصة عباده، أما المعرفة الإنسانية المكتسبة فهي التي يكتسبها الإنسان بما أودعه فيه من مزايا التفكير والعقل، بعد أن أنعم عليه وأكرمه

(١) سورة النحل: ٦٨.
(٢) الصابوني - صفوة التفاسير (٢/ ١٣٣).
(٣) الصابوني - صفوة التفاسير (٢/ ١٩٩).
(٤) سورة الكهف: ٦٥.

بـ (المعلومات الأولى) التي كانت نقطة البداية للعقل الإنساني مع آدم عليه السلام، فقال جل جلاله:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

ومهما اختلف بشأن ما علمه رب العالمين لآدم عليه السلام فإن المفسرين لا يختلفون في أن الله تعالى قد علمه ما يصلح به شأنه في هذه الحياة الدنيا بعد أن أخرجه مع زوجه حواء من الجنة لحكمة أرادها سبحانه وتعالى.

إذا كان العلم الأول -المعرفة الأولى- جاء عن طريق الإنسان الأول استكمالا لحياة هذا الكائن الذي كرمه الله، وخلقه في أحسن تقويم، فإن بقية الناس -جميعهم- يولدون من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ومصداقه قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢).

أي أعطاكم عناصر التفكير والعقل التي تمكنكم من عقل الأشياء والأفعال والأقوال، وبالخبرة والتجربة والنظر تسيرون في طريق الرقي والتقدم.

---

(١) سورة البقرة: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

هذا في الوقت الذي حث فيه على طلب العلم والمعرفة النافعين لإنسانية الإنسان ودوره في الحياة الدنيا، هذا الدور الذي حدده في ثلاثة أمور هي:

أولاً: عبادته المذكورة في قوله جل وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١)، وهي ضرورة نفسية إنسانية، قال تعالى:

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢).

ثانيًا: خلافته المذكورة في قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (٣).

وقوله أيضاً: **﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾** (٤).

ثالثًا: عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى:

﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ (١).

---

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة الرعد: ٢٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٣٣.

(٤) سورة النور: ٥٥.

وقد عبر القرآن الكريم بـ (القلب) عن العقل، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [٣]، أي (عقل) كما فسره ابن عباس ومجاهد [٤].

وكذلك عبر بـ (الفؤاد) عن العقل في قوله تعالى:

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [٥].

وجاء مجموعا في قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [٦]. ومن مرادفاته القرآنية أيضاً (النهي)، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ [٧].

كما عبر عن العقول بـ (الألباب) التي لم ترد في حالة الإفراد أيضاً، قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١].

---

(١) سورة هود: ٦١.

(٢) سورة الحج: ٤٦.

(٣) سورة ق: ٣٧.

(٤) تفسير ابن كثير -مختصر- مؤسسة الرسالة ط ١١- ٢٠٠١ ص ١٢٥٠.

(٥) سورة النجم: ١١.

(٦) سورة السجدة: ٩.

(٧) سورة طه: ٥٤.

ومما هو جدير بالملاحظة أن القرآن الكريم يربط ربطا محكما بين صمم الآذان، وعماية الأبصار، وإقفال القلوب وتعطيل العقول حتى كأن ذلك يحدث في وقت واحد مما يؤكد الصلة بين حواس الإنسان وقلبه، كما في قوله تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ (٢).

أي عمى الضلالة، على أساس أن القلب هو موطن غريزة التدين عند الإنسان (٣)، وقوله تعالى

﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (٤).

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠.

(٢) سورة الحج: ٤٦.

(٣) مؤسسة الشيخ موسى - بيروت ط ١١- ١٩٩٥م ص ١٠٧- ١١٨ بتصرف.

(٤) سورة محمد: ٢٣، ٢٤.

المبحث الثامن

أنواع المعرفة

ذهب الدكتور/ راجح إلى أن أنواع المعرفة أربعة [١]:

١- المعرفة الحسية.

٢- المعرفة العقلية.

٣- المعرفة اللدنية.

٤- المعرفة النبوية عن طريق الوحي.

وممن وافقه على هذا التقسيم الدكتور/ مصطفى غلوش غير أنه عبر عن المعرفة اللدنية بالمعرفة الإشراقية [٢]، وهناك من ذهب إلى أنها:

المعرفة الحدسية، والمعرفة الاستدلالية، ومعرفة الاعتقاد أو الإيمان، والمعرفة الحسية، والمعرفة الاجتماعية [٣].

وعلى كل حال فإن الفلاسفة -وغير المؤمنين بالمعرفة الوحيية- يقصرون أنواع المعرفة على الحسية والعقلية والمادية [٤].

---

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والسنة - دكتور/ راجح عبد الحميد الكردي- ص ٥٣٩ وما بعدها.

(٢) البعد الرابع في نظرية المعرفة - دكتور/ مصطفى غلوش - ص ١٠٧ وما بعدها.

(٣) انظر أبحاث جديد في الفهم الإنساني ج. ف. لينيتز ص ٩٨، ٩٩.

(٤) الإنسان والعقل - د/ نايف معروف- ص ٨٧ وما بعدها.

وبعضهم يجعلها في الإحساس والظن والاستدلال، والتعقل [١].

وأجمل بعضهم هذه الأربع في عالم الشهادة حسية كانت – المعرفة فيه– أو عقلية أو حدسية، وعالم الغيب ولا يتأتى إلا عن طريق الوحي [٢].

وعلى كل حال فالتقسيم الأول هو المختار لاشتماله على ما بعده [٣].

أ– المعرفة الحسية:

يذهب الجرجاني في كتابه (التعريفات) إلى أن الحس: هو إدراك الشيء بإحدى الحواس فإن كان الإحساس للحس الظاهر فهو المشاهدات، وإن كان للحس الباطن فهو الوجدانيات.

المقصود بالمعرفة الحسية:

نقصد بالمعرفة الحسية: تلك الصورة المعرفية عن (جزئيات) تتناثر في العقل وقد اكتسبت عن طريق المشاهدة الشخصية، والخبرة الفردية التي مرت بالإنسان خلال الحياة العملية [٤].

وهؤلاء الحسيون أو التجريبيون فقالوا: إن كل معرفة إنما سببها الإدراك بالحواس، وبعبارة أخرى إن منبع معرفتنا هو الإدراك الأول أعني (الإدراك بالحواس باطنة أو ظاهرة)، فباجتماع هذه الإدراكات وتركيبها وإتقانها تحصل التجارب، وبجمع التجارب

(١) المعرفة عن الفلاسفة اليونان – د/ محمد فتحي عبد الله – ص ٢٩– ٣١.

(٢) الفرق بين الفرق للبغدادي – ص ٣٢٤، المرجع السابق ص ٤٦.

(٣) انظر: نظرية المعرفة والوحي – دكتور/ عبد الله بركات بحث مقدم إلى رابطة الجامعات الإسلامية.

(٤) البعد الرابع في نظرية المعرفة – د/ مصطفى غلوش: ص ٢٧.

وترقيتها تحصل المعرفة، فمنبع المعرفة إذن عمل الحواس أي «الإدراك بالحس» و «التجربة» وهما يقابلان – عند أصحاب النظرية الأخرى الآتي شرحها –«التفكير و «الفكر» [1]، وعلى هذا المذهب تكون كل معرفة ولو كانت فكرا عميقا أو (آلقانة) ترجع إلى الإدراك الحسي، فمذهب الحسيين إذن هو المذهب القائل بأن التجربة هي المنبع الوحيد للمعرفة أو على الأقل أساسها، وأن كل معرفة تتبع من التجربة.

والتجربة نوعان:

فإما أن تكون مستقاة من الحواس الظاهرة، وإما من الباطنة، فإدراك الأشياء الخارجية يسمى إحساسا، وإدراك الأشياء الباطنة يسمى تأملا، والإدراك بنوعيه باب ينفذ منه ضوء المعرفة إلى حجرة الفهم المظلمة.

---

(١) قال بروتاغوراس رأس السوفسطائية إن الإدراك بالحس هو المصدر الوحيد للمعرفة، ومع ذلك فهذا الإدراك إنما يعرفنا ظاهر الشيء فقط لا حقيقة الشيء نفسه ومن أجل هذا كان كل رأي ينشأ عن الإدراك بالحس صحيحاً عند المحس وحده بل صحيحاً في لحظة واحدة وهي اللحظة التي حصل فيها الإدراك، أما الصحة العامة للطلقة فلا وجود لها.

وإذا كانت معرفة الإنسان لا منبع لها غير الإدراك بالحس وكان شأن الإدراك ما ذكرنا كانت معرفة الإنسان لا يوثق بصحتها –وقد سلم أفلاطون بهذا الرأي وهو إن الإدراك بالحس إنما يكون معرفة وقتية، وعنده أن هذا الإدراك إنما يعرفنا ظواهر الشيء لا حقيقته (ولكن لم يقصر الإدراك على الحس)، وبينما بروتاوراس يقول إن معرفة الشيء لا يمكن أن تنال، إذا بأفلاطون في كتابيه تيتيونوس ونيمايس يقول بإمكان المعرفة، وقال إن ما يقرب إلى المعرفة هو الرأي الصحيح الذي يستطيع الإنسان أن يبرهن عليه، ويعني أفلاطون بالمعرفة معرفة حقائق الأشياء فهو في قوله هذا من العقليين. (المؤلف).

قال «لوك» في رسالته «العقل البشري»: «لنفرض أن العقل صحيفة بيضاء خالية من أية كتابة وأي معنى، فكيف استعدت لأن تتلقى ما يلقى إليه؟ ومن أين لها ذلك المستودع العظيم الذي نقشه عليها خيال الإنسان الواسع نقشاً متنوعاً إلى أنواع لا تحد؟ ومن أين لها كل مواد الفهم والمعرفة؟

عن كل هذه الأسئلة أجيب بكلمة واحدة وهي «من التجربة» فمنها استقينا كل ما عرفنا ومنها نستمد المعرفة، فملاحظتنا سواء كانت ملاحظة محسوسات خارجية أو ملاحظة عمليات العقل الباطنة، وبعبرة أخرى سواء كانت إدراكاً بالحس الخارجي أو تأملا فكريا هي التي تزود عقلنا بكل أدوات التفكير، ومن هذين لينبوعين نستقي كل أفكارنا، وكل أفكار يمكن أن تكون أساسا للتغيير وهما -على ما أعرف- المنفذان اللذان ينفذ منهما الضوء إلى تلك الحجرة المظلمة، إذ يظهر لي أن العقل كحجرة صغيرة حرمت من كل النوافذ إلا فتحات صغيرة تدخل منها صور المحسوسات الخارجية أو الآراء المتعلقة بها.

وقال: « لهذا كان أول مقدرة للعقل هي أن يكون صالحاً للانفعال إما بواسطة الحواس التي تدرك الأشياء الخارجية، وإما بالعمليات التي يعملها لعقل عند التأمل في هذه الأشياء، وهذه أول خطوة يخطوها الإنسان لاستكشاف أي شيء، والأساس الذي تبني عليه كل الآراء التي يحصلها في هذا العالم، فكل الأفكار الراقية الجليلة التي تفوق السحاب رفعة وتعلو السماء إنما أصلها الحواس، ويسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ويتأمل تأملات رفيعة، وهو في كل هذا لا يخرج قيد ذرة عما أمدته به الحواس أو التأمل (الفصل الأول من الجزء الثاني).

من هذا يعلم أن الحسيين أو التجريبيين يرون أن ما يمكن أن يجرب هو وحده الذي يمكن أن يعرف، وأن أداة المعرفة الصحيحة هي الإدراك بالحس، أما قوة الفكر فقابلة في الغالب لما يرد عليها لا فعله [١].

والمعرفة التي تأتي عن طريق الحواس: إن ظلت في دائرتها المحددة وهي العلاقة بين الحس والمحسوس فإنها تنتج اليقين الذي يؤخذ من بداهة المشاهدة، وهي بذلك مصدر أصيل للمعرفة.

ولكنها قد تحاول الولوج في دائرة ليست لها، وبذلك يصيبها (الخطأ)؛ لأن طبيعتها تمنعها أن ترقي إلى مستوى الدقة، أو إلى تحقيق فكرة (الثبات).

وهذا المحور الذي نشير إليه هو الذي يلاحظ عندما يريد الاعتماد على « المعرفة الحسية» [٢].

وكذلك هو الذي نجده عند من يقلل من أهمية المعرفة الحسية.

أهمية المعرفة الحسية:

المعرفة الحسية: أول ما تتلقاه النفس من معارف تنفعل بها، وطريق صلتنا المعرفية بالعالم الخارجي الذي حولنا، إذ لولا الحس كوسيلة اتصال به لما علمنا عنه شيئاً.

فيما من ولد أعمى –مثلاً– لا يدرك المرئيات، ولا يحس الصورة الجزئية التي تأتي عن طريق الإبصار، ويمكن أن يطرد ذلك في بقية الحواس، لأن « الصلة » التي تربط

---

(١) مبادئ الفلسفة أ. س. رايويرت– ترجمة أحمد أمين ص ١٩٣، وما بعدها.

(٢) البعد الرابع في نظرية المعرفة – د/ مصطفى غلوش، ص ٢٨.

بين الرائي والمرئي هي الرؤية، وبغير هذا لتلاقي الثلاثي لا تتكون المعرفة الحسية في ميدانها.

مكونات المعرفة الحسية:

تعتمد نظرية المعرفة الحسية على أمور لابد من وجودها وهي:

١- الحواس الناقلة للمدركات المعرفية.

٢- ارتسام صورة المعرفة (الحسية) المراد نقلها لطالب المعرفة.

٣- نقل هذه الصورة إلى (النفس) حتى تستقر وتؤدي وظيفتها التي هيئت لها.

وبذلك تكون المعرفة الحسية قد قامت على جوانب (مادية) ثلاثة هي:

١- الحس.

٢- الزمان.

٣- المكان.

ومن هنا: تبقى المعرفة الحسية مادية وجزئية، وتخضع للمعيار (المادي) والمقياس (الجزئي).

وهذا الوصف يجعلها قاصرة عن أن تكون مؤدية إلى (التعميم) بذاتها؛ لعجزها عن أن تكون منهجا مستقلاً.

ويمكن أن تكون المعرفة الحسية طريقاً من طرق اليقين وذلك إذا تحققت عدة أمور منها:

١- إذا كانت بداهة المشاهدة هي الحاكمة.

٢- إذا تجاوز العارف المعرفة الحسية إلى ما بعدها، وليس بعدها إلا المعرف العقلية التي تقوم على دور العقل في تجريد (المحسوسات) من جوانبها المحدودة، والانطلاق إلى طور التعميم الكلي الصادق على ما هو أشمل وأوسع.

ونحب أن نؤكد هنا أنه لا ينبغي علينا أن نفهم من تعبير قصور المعرفة الحسية أنها قاصرة بالإطلاق؛ لأن (الجزئيات) التي تأتينا من طريقها وتستقر بالانتقال إلى الذهن هي في الحقيقة ميراث الزمان والمكان الذي استغله الإنسان بموضوعية، واختار منه ما أعانه على اختبار منهجه وصنع أدوات تفكيره.

ولعل من الإنصاف للمعرفة الحسية هنا أن نذكر بالتقدير الكثير من المعارف الحسية، التي كانت السبب في توجيه نظر (العقل) إلى الكثير من قوانينه المجردة، والتي لم تكن معروفة للإنسان قبل هذا التوجيه الحسي [1].

مجالات المعرفة الحسية وخصائصها وتقييمها:

يمكننا أن نذكر أهم خصائص المعرفة الحسية ومجالها وقيمتها في المعرفة فنقول:

١- إن أهم خصائص المعرفة الحسية أنها معرفة متصلة بالمحسوسات المادية، فعالم الحس أو عالم الشهادة بتعبير القرآن هو مجال هذه المعرفة، إذ تقوم فيه الحواس بتأكيد واقعية عالم الشهادة وخارجيته واستقلاله عن الذات العارفة، ولكن هذه المعرفة في تأكيدها لدور الحواس في إثبات خارجية العالم الحسي وواقعيته، لا تستقل بها وحدها إذ ليس في الإحساس حكم وإنما الحكم للعقل، وإن كان العقل لا يستطيع أن يحكم

(١) للمصدر السابق، ص ٣٧، ٣٨ بتصرف.

بشيء في عالم المحسوسات دون أن تقدم له الحواس مادة المعرفة. أو صورة عن هذه الأشياء في الواقع، فالمعرفة العلمية أو المعرفة التجريبية في طورها النهائي، إنما تقدم علماً مجاله الكون أو عالم المحسوسات، وقيمة الحواس هنا أنها تقدم صور متفرقة عن الأشياء تجتمع لدى العقل فينظمها ويصفها ويحكم عليها.

٢- مجال الكون مجال واسع تطلعنا فيه الحواس على ظواهر الأشياء، ولا تستطيع أن تطلعنا على حقيقة الأشياء وكنهها، فكان خطأ التجريبية التي تدعي أن الحواس والمعرفة الحسية، هي التي تعطينا صورة صادقة عن الواقع وعن حقائق الأشياء وكيفياتها، ومن ثم كان متكلمونا المسلمون يعلمون خطورة هذا الإدعاء من المذاهب التجريبية، فكان تقييدهم لدور الحواس وقيمتها في المعرفة ومجالها، فهي تؤكد وجود الأشياء ولا تعطي الأشياء وجودها، وتؤكد واقعية الأشياء ولكنها لا تستطيع أن تدعي أنها تصل إلى حقائقها وكيفياتها، ذلك أن أعلى أنواع المعرفة وهي معرفة الألوهية، ليست داخلة -في حقيقتها- في مجال الحواس ومجالها قاصر على الدخول إلى هذا المجال وإن التقدم العلمي مهما بلغ في مجاله التجريبي لا يستطيع أن يعطينا أكثر من التأكيد على وجود العالم المحسوس، ولكنه سيبقى قاصراً على الدخول إلى ساحة المجهول بالنسبة لنا وهو حقيقة الأشياء وكنهها.

٣- والمنهج القرآني هنا متميز -في تقييم دور التجربة ومجالها- عن كل المذاهب الفلسفية، ذلك أنه لا يقبل إدعاء المذهب التجريبي في الاقتصار على الحواس طريقاً للمعرفة، والاقتصار على عالم الشهادة مجالاً لها، كما يجعل الحواس بابا للمعرفة العقلية وأنه لا قيمة للحواس في عملية المعرفة بدون العقل الذي يوجهها ويضبطها ويجمعها ويرتب صورها ويعطي أحكاما على مجالاتها، كما يخالف تقييم المذهب الأفلاطوني

المتطرف في تقييم دور الحواس الذي يجعلها لا تعدو أن تكون أشباحا أو ظلالا للحقيقة العقلية ولا يعدو دورها التذكير، بل هي حجاب تحول دون الوصول إلى الحقيقة [١]، كما يخالف المذهب النقدي لدى « كانت » الذي جعلها المضمون التجريبي للقوالب الفطرية أو لمقولتي المكان والزمان، وإن كان المذهب النقدي أقرب من سابقيه إلى الحقيقة، إلا أنه أخطأ إذ قصر دور العقل النظري في العمل مع الحواس فحسب أي اقتصر على الظاهر الحسية فحسب، وحجبه عن معرفة مجال علم الغيب، ونحن نقدر له محدودية الإنسان في معرفته وعجز عقله عن الوصول إلى كنه الأشياء وحقائقها، ولكنا نجعل للعقل دوراً مع الحواس ومن خلال النظر في عالم الشهادة وقوانينها، يتمكن به أن يستدل على مبدأ وجود عالم الغيب، وإن كان بحاجة بعد ذلك إلى الوحي لمعرفة تفصيلاته.

٤- كما أن من خصائص المعرفة الحسية أنها محكوم عليها بالتغيير بحسب الشخص والظروف والعوامل التي تتحكم في التجربة، وكل هذا يدعو إلى ضرورة ارتباط الإدراك الحسي أو الإحساس بالعقل الذي يضبط ظروف التجربة، ويقوم بعملية الاستنباط والاستنتاج، فيعطي للمعرفة الحسية ثباتا حتى يتصف هذا الإحساس بأنه علم أو معرفة.

٥- كما أن المعرفة الحسية ذات طبيعة جزئية أي تدلنا على الأفراد والجزئيات ومن ثم فمجالها أن تعرفنا على ما يحتويه الكون أو عالم الشهادة من أفراد وطبائعها من خلال التجربة، وقد جعل القرآن التعرف بالحواس على هذه المخلوقات وأفرادها

(١) هنترميد الفلسفة ص ٦٦.

وطبائعها من دلائل عظمة الله، وتصلح لأن تكون دليلاً على وجوده ووحدانيته وحكمته، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ (١) .

وقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وذكر سبحانه بآلائه ونعمه المشاهدة فقال: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٣).

وغير هذا كثير في القرآن من آيات تثير العقل لتوجيه نظر الحواس إلى أفراد المخلوقات، وإلى عالم الشهادة بما فيه من عجائب وطبائع وما يثير الإعجاب، لتكون

---

(١) سورة الشورى: ٢٩.

(٢) سورة الروم: ٢٠- ٢٤.

(٣) سورة الرحمن: ١٠- ١٦.

هذه المعرفة الحسية أو العلمية التجريبية بهذه الأشياء طريقاً لاستدلال العقل على وجود الله ووحدانيته وعظمته، مما يقتضي الإيمان به سبحانه، وزيادة اليقين وإخلاص العبادة له وحده سبحانه.

وعلى ذلك فالمعرفة الحسية تركز على الوحدة النوعية أو على الأفراد وليس على الجنس؛ لأن ذلك من شأن، المعرفة العقلية التي تعمم الظواهر الفردية وتجعلها في مقولة الكليات، ومن ثم فالمحسوسات موضوع المعرفة الحسية، وتنقسم إلى ثلاثة كما قال أرسطو من قديم، محسوس خاص لكل حاسة، ومحسوس مشترك بين الحواس كاللون والعدد، ومحسوس بالعرض مثل قولنا هذا الأبيض هو ابن فلان [١].

٦- ولهذه المعرفة قيمة كذلك في تمهيد الطريق للعقل، وتسهيل المعرفة للأشياء وتسهيل عقد الصلة بين الإنسان والكون، صلة الانتفاع والتسخير وصلة التأمل والاعتبار، ومن ثم فالحواس موظفة وخادمة للعقل في نظر القرآن، والخادم لا يكون بديلاً عن السيد في أي حال من الأحوال، وإذا ما نظرنا إلى استعمال القرآن لهذه الحواس نجده يحرص على توظيفها في خدمة الإيمان، وخدمة الإنسان، وهو يؤدي دوره العرفي في الحياة، والذي يقع على قمة هذا الدور أمانة الهداية التي كفلها الإنسان كما قال تعالى:

(١) تاريخ الفلسفة العربية - د/ صليبا ص ٨٠.

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (١).

والمعرفة الحسية هي إحدى مقدمات الدليل العقلي، إذ تكون يقينية في تأكيدها على الأشخاص والأحداث المرئية في العالم الخارجي، وقد عدها فلاسفة المسلمين ومتكلموهم في مرتبة البديهيات، بل جعلوها قسيمة لها وجعلوا البديهيات والحسيات قسمين للعلوم الضرورية، التي تقف عليها المعرفة النظرية.

٧- والحواس ذات طبيعة ناقصة؛ لأنها تمثل جزءا من الوجود الإنساني الذي يقوم على كينونة إنسانية مزدوجة، تجمع بين الحواس والعقل، وبين المادة والروح وتهيئ للإيمان بعالم الشهادة وعالم الغيب، والكينونة الإنسانية كينونة ذات فاعلية في عملية المعرفة، سواء في الإدراك الحسي أو في الإدراك العقلي، وليست سلبية تتلقى وتقبل أثر الإحساس وتتحكم فيها ظواهر الكون المحسوس، وإنه مع الاعتراف بنقص الحواس وعيوبها (٢)، إلا أن ذلك لا يبرر الهجوم عليها؛ لأنه يمكن إكمال هذا النقص وتصحيح هذه العيوب بالعقل وتوجيهه، كما أن الاعتراف بدور الحس في المعرفة لا يخول

(١) سورة الأحزاب: ٧٢.

(٢) يقيم الغزالي الحواس فيضرب لنا مثالاً بحاسة البصر ليدلنا على سبعة عيوب فيقول: « أعلم أن نور البصر موسوم بأنواع من النقصان، فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بعد منه ولا ما قرب، ولا يبصر ما هو وراء حجاب، ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها، ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهاية له ويغلط كثيراً في إبصاره فيرى الكبير صغيراً ويرى البعيد قريباً والساكن متحركا والمتحرك ساكنا، فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة، انظر: الغزالي: مشكاة الأنوار من مجموعة القصور العوالي: ج ٢ مكتبة القاهرة ١٩٧٠: ص ٧.

للمذهب التجريبي أن يجعلها هي المصدر الوحيد ذات القيمة الرئيسية في المعرفة مع إنكار دور العقل بصورته الإيجابية.

وعلى ذلك فإننا إذا كنا بصدد تقييم سليم للمعرفة الحسية فإنه يمكن القول: بأننا مع اعترافنا بعجز الحواس وعيوبها وفرديتها إلا إنها تقوم بدور في المعرفة مع العقل، فهي أبواب المعرفة العقلية المنفتحة على عالم الشهادة، والتي لولاها لما استطاع العقل أن يقدم حكماً على هذا العالم المحسوس، ولكنها مع ذلك ليست مصدراً وحيدا للمعرفة كما أنها ليست مصدراً مستقلاً [١].

موقف الإسلام من المعرفة الحسية:

في بادئ الأمر: إن الإسلام اعتبر المعرفة الحسية كطريق من طرق اليقين ويكفي أننا نجد المعجزات النبوية تدور كلها في ذلك الحس الذي هيأ العقل للإفادة منها.

والقرآن الكريم يوقفنا على أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان، وليس لديه أي نوع من المعارف وبعد ذلك بدأ الإنسان يلتقط خبرته وتجاربه عن طريق (المعرفة الحسية) وآلاتها، قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [٢].

(١) انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجع الكردي ص ٥٩٢، وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة النحل: ٧٨.

بدأ السمع والبصر وغيرهما يقبل المعرفة الجزئية إلى الفؤاد وهو من أسماء العقل في القرآن الكريم، كالقلب فيدرك اليقين الموصل، وهذه نعمة كبرى يجب أن يشكر الإنسان ربه عليها، ولكنه قليلاً ما يلفت إلى هذه النعمة أو إلى هذا الشكر.

وبذلك يظهر بوضوح ما نود دائماً التأكيد عليه وهو أن المعرفة الحسية بداية لكمال المعرفة في نظر القرآن الكريم، وهذا المنهج يتواءم مع المنهج العقلي الذي يؤدي إلى اليقين [1].

والقرآن الكريم لا يوافق أبداً على اعتبار الحواس طريقاً وحيدا للمعرفة، كما أنه لا يوافق أبداً رفض الحواس طريقاً من طرق المعرفة، وإنما يعتبر الحواس بابا للعقل في المعرفة، والحواس والعقل يعملان كلاهما في عملية المعرفة، وهو يأخذ على كل من الحسيين والعقليين الحصر في الاقتصار على طريق واحد للمعرفة وإنكار دور الحس، أو العقل، كما يأخذ عليهم تجاوزهم الحد في اعتبار الحس طريقاً وحيدا وفي إهدار الحس طريقاً من طرق المعرفة.

أما احترام القرآن للحواس واعتبارها طريقاً للمعرفة فلا أدل عليه من أنه ذكر ا لسمع المتعلق بالإنسان وماله علاقة بهذه الحاسة ما يقارب من ثلاثمائة مرة، كما ذكر البصر ومتعلقاته في ما يقارب مائتين وأربعة وستين موضعا، ويمدح الله سبحانه في القرآن من استعمل نعمة الحواس في الوصول إلى المعرفة، ويذم من اكتفى بهذه الحواس لتؤدي مجرد الدور الحيواني في الحياة وأفسد دورها المعرفي، واستخدمت الحواس لتدل على العلم القوي حيث يقول سبحانه في كل ذلك:

---

(١) البعد الرابع في نظرية المعرفة – د/ مصطفى غنوس ص ٥٤، ٥٥.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ (١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ (٢).

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (٣).

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (٤).

ويقول ذاما لمن لا يجعل هذه الحواس طريقاً لمعرفة الله:

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٥).

وقد جعل القرآن من المشاهد المحسوسة والآيات الكونية المنظورة دليلاً على وجود الله ووحدانيته وعظمته، وطلب من الإنسان أن ينظر فيما حوله ومن حوله، وإلى كتاب الكون المفتوح ببصره وسمعه وسائر حواسه، إذ يقول سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٦).

---

(١) سورة الأنعام: ١٠٤.

(٢) سورة الأنعام: ٤٦.

(٣) سورة الحجر: ١٥.

(٤) سورة الأنعام: ٣٦.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٦) سورة الروم: ٢٣.

ويقول سبحانه:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١).

وقال عز وجل:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

وقال سبحانه:

﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ * وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ

(١) سورة الغاشية: ١٧- ٢٠.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤.

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١)، وغير ذلك كثير.

وقد جعل القرآن الحواس مع العقل في المعرفة، ولم يجعلها مصدراً مستقلاً، فإنها وإن كانت مهمة بحيث إن تعطيلها يؤدي إلى تعطيل العقل كما قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (٢).

إلا أنه لم يجعلها مصدراً مستقلاً، بل إن الآيات الكثيرة في القرآن لتشير إلى أن الدور الأهم والأساسي هو للعقل، مع كون الحواس طريقاً أو بابا من أبواب المعرفة العقلية، بل إن العقل يحول المعرفة الحسية إلى معرفة عقلية، مما يدل على ذلك قله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٣).

وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾(٤).

(١) سورة الأنعام: ٩٥- ٩٩.

(٢) سورة الأعراف: ١٧٩.

(٣) سورة الإسراء: ٣٦.

(٤) سورة النحل: ٢٣.

فالحواس تؤدي دورها في تقديم مادة للعقل، الذي يقف ورءها ليجعل من هذه المحسوسات إدراكات ومعارف حقيقية، ودور للعقل هنا ليس ذلك الدور السلبي، كما عند جون لوك، وإنما هو دور إيجابي، وإذا كان الفكر حكماً على الشيء فإن الحس أحد عوامل هذه الفكر بالإضافة إلى العوامل الأخرى، وهي الواقع والدماغ والمعلومات السابقة أو العقل، فالواقع مصدر المعلومات الحسية والحواس تنقل هذا الواقع إلى الدماغ، والدماغ يميز هذا الانطباع للواقع، والمعلومات العقلية تربط هذه العوامل لتكوين حكم الفكرة [١]، والحس هذا في عملية المعرفة أو الفكر لدى الإنسان مختلف تماماً عن التمييز الغريزي الذي يتم لدى الحيوان من تكرار الإحساس بالواقع، من أجل إشباع مركز الإحساس أو الحاجة العضوية، ومن ثم فإن الحس يخدم الطريقة العلمية؛ لأنها تقوم على إجراء التجارب للوصول إلى الحقيقة وذلك بإخضاع المادة لظروف وعوامل جديدة من هذه العملية حقيقة علمية تجريبية، وبالملاحظة والتجربة ثم بالموازنة والترتيب ثم بالاستنباط القائم على المقدمات العلمية، نصل إلى حقيقة علمية تكون مادة للتفكير، أو للطريقة العقلية التي هي أساس التفكير وأساس الحكم [٢].

وإذا كانت التجربة أو الحواس تساهم بقدر ما في عملية المعرفة، إلا أنه من الخطأ الكبير والمغالطة الواضحة اعتبارها مصدراً وحيدا وميدانا للمعرفة، وهنا يقف القرآن في وجه كل من المذاهب الفلسفية التجريبية التي تعتبر التجربة المصدر الوحيد والميدان الوحيد للمعرفة العقلية التي تنكر دور الحواس في المعرفة، وكذلك والنقدية التي تحدد

---

(١) طريقة الإيمان – سميح عاطف الزين: ص ١٣ نقلاً عن نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – د/ راجع الكردي ص ٥٩٠.

(٢) نقلاً عن نظرية المعرفة القرآنية والفلسفة، ص ٥٩٠.

المعرفة بأنها المعرفة في حدود الظواهر التجريبية، أو في حدود عالم الشهادة بالتعبير القرآني الفريد، ذلك أن القرآن جعل من عالم الشهادة وما فيه من محسوسات، ينظر فيها بالنظر العقلي طريقاً عقليا إلى معرفة جديدة غيبية، وهي وراء عالم الحس والشهادة، وعلى رأس هذه المعرفة الإيمان بوجود الله سبحانه ووحدانيته.

وموقف القرآن هذا كان له أثره في آراء المتكلمين وفلاسفة المسلمين، من حيث المبدأ وهو أن الحس خادم العقل، وتابع له يمده بما يحتاج إليه من صور المعلومات في مختلف الحقول والميادين، كما يقول الغزالي: «والحس يدرك التعدد والتباين بتباين المكان أو الزمان، فإذا رفعا عسر عليه التصديق بأعداد متغايرة بالصفة والحقيقة حاصلة فيما هو في حيز واحد» [١].

والجويني -من متكلمي المسلمين- يرى أن الحواس أساس أو طريق من طرق العلم مثلها مثل البديهات [٢]، وقد جعل البغدادي كذلك العلم الحسي أحد أقسام العلم الضروري وقسيما للعلم البديهي [٣].

ولعل تقدير دور الحواس والعقل -في المعرفة- في الإسلام أدى إلى منهج تجريبي فيما يتعلق بعالم الشهادة وجعل هذا المنهج خادما للإيمان، في الوقت الذي لا يصح فيه لهذا المنهج أن ينصب نفسه حكماً أو معيار لما هو خارج ميدانه، ومن هنا كانت المخالفة للمنهج التجريبي غير الإسلامي بالغة؛ لأنه لم يجعل لهذا المنهج ضابطاً وهدفا

(١) معيار العلم - الغزالي- ص ٢ ص ٦٣.

(٢) الإرشاد - الجويني - ص ١٢، ١٣.

(٣) أصول الدين - البغدادي: ص ٨.

كما فعل الإسلام، إذ إنه جعل التجربة متجاوزة لحدود العالم الحسي أو عالم الشهادة إلى عالم الغيب الذي لا يخضع لمقاييس التجربة الإنسانية، بينما جعل القرآن قوانين عالم الشهادة التجريبية لا تدفع إلا في عالم الشهادة، ولا يتجاوز دورها بالنسبة لعالم الغيب سوى أنها تسلم بوجوده، وهذا بخلاف نسبية «كانت» التي جعلت عالم الغيب خارجاً عن نطاق قدرة العقل، بينما يرى الإسلام أن بإمكان العقل ومن خلال قوانين عالم الشهادة أن يسلم بوجود عالم الغيب وإن كان لا يستطيع أن يدلي بتفاصيل هذا العالم، وإنما تكون المعرفة التفصيلية عنه من طريق أخرى فوق قدرة هذا الإنسان وهو طريق الوحي.

ومن قواعد هذا المنهج التجريبي التي وضعها الحسن بن الهيثم، مما أثر عنه في كتاب المناظر قوله: «ونتبدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات، وتمييز خواص الجزئيات، ونلتقط باستقراء ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه، من كيفية الإحساس ثم نترقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج ونجعل فرضنا في جميع ما نستقريه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى -في سائر ما نميزه وننفذه- طلب الحق لا الميل مع الآراء، لعلنا ننتهي بهذا الطريق الذي به يثلج الصدر ونصل بالتدريج والتلطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظفر مع النقد والتحفظ التي يزول معها بالخلاف وتنحسم بها موارد الشبهات [1].

(١) عن مقالة في مجلة الحياة الثقافية بتونس، عدد العلم والإيمان في الإسلام ، ١٩٧٥- للدكتور السويس - ص ١٩٦ نقلاً عن نظرية المعرفة - د/ راجح الكردي ص ٥٩١، ٥٩٢.

وبهذا ننتهي إلى أن للحواس دوراً مع العقل في المعرفة، ولكنه مع أهميته ليس دورا مستقلاً.

المعرفة العقلية

المقصود بالعقل في القرآن الكريم:

مما يلفت الانتباه أن لفظ «العقل» في صيغته الاسمية لم يرد في القرآن الكريم مطلقاً، لكن وردت مشتقاته في صيغته الفعلية مثل عقلوا، ويعقلون وتعقلون ونعقل، ويعقل قرابة خمسين مرة، أما الألفاظ التي تدل على النشاط العقلي بصفة عامة مثل التفكر، والتدبر والعلم، والنظر والإدراك والفكر والتبصر فقد وردت مئات المرات.

ومن تأمل الآيات التي وردت في القرآن الكريم يجد ما يدل على أن العقل يتفكر في جميع الظواهر الكونية المحيطة به وذلك واضح في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ (١).

ومن هذه الآيات السابقة نستخلص منها عدة ملاحظات حول موقف القرآن الكريم من العقل:

أولها: الثقة التي يوليها القرآن للحواس بحيث تكون معطياتها دائماً هي منطلق التفكير والتدبر من حيث كونها دليلاً على الصانع المنعم، وهذا أمر يتكرر في جميع الآيات التي اشتملت على إحدى صيغ العقل، فالسحب في السماء والفلك في البحر كل هذه وتلك إنما هي ظواهر مشاهدة ومعهودة، وهي دلائل وآيات على الصانع

(١) سورة البقرة: ١٦٤.

سبحانه وتعالى، وكذلك عادات البشر كالنوم والسعي وعادات الكون ومظاهره كل ذلك منطلق للتفكير العقلي وواسطة الوصول للنتيجة المرجوة، وهي أن لهذا الكون منظماً ومدبرا، وهو الذي أعطاه هذه الصورة التي نراه عليها، وهذا يدل على وثاقة الارتباط بين كل من الحواس والعقل.

ثانيها: الوضوح والبساطة في عمليات التفكير والتدبر والتعقل، فكأنها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق، أو بحث غامض أو تحليل معقد، إنما هي من البساطة والوضوح بمكان بحيث تدرك بواسطة العقل إدراكاً مباشرا أشبه ما يكون بالحدس فهي بالنسبة للنموذج الأول إدراكات بديهية حسية عقلية، يستدل الإنسان من خلال الصنعة على الصانع، ومن خلال الإتقان على المتقن وهي بالنسبة للنموذج الثاني معقولات أخلاقية اجتماعية، يستدل العقل فيها – من خلال أوامر الله ونواهيه– على ما ينفعه وما يضره فيلتزم بطاعة الله ورسوله التزاما عقليا وفطريا.

ثالثُها: إن هذا العقل بهذا المعنى يمثل ميزة فريدة وضعها الله سبحانه في الإنسان، به يعرف ويعمل ومن هنا كانت مسئولياته.

رابعها: إن العقل الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلاً مجرداً، أو جوهرا قائماً بذاته –كما توهم بعض الفلاسفة [1]، وإنما هو ظاهرة أو طاقة أو ملكة أو قدرة إلهية في الإنسان جعلها الله تعالى ليستعملها في حدود رسمها له ونبهه إليها وبهذا يصبح العقل الإنساني –في القرآن الكريم– عقلاً واعيا بطاعة الله، فيأتمر عن طواعية بما أمر الله به.

(١) الرسالة السبعينية: ابن تيمية، ص ٣١.

خامسها: - وهي ملاحظة جوهرية- إن هذا العقل لا يصلح أن يكون حكماً في كل شيء حتى في موضوع خالقه، وفيما يصدر عنه، وما يرد إليه أو فيما يتصل به، بحقيقته وحقيقة صفاته وحدودها وطبيعتها من حيث صلتها بذاته سبحانه [١] ، وهذا فضلاً عن الأمور التي احتفظ بعلمها لنفسه، والقرآن الكريم يشير إلى بعض هذه الجوانب التي يزود الإنسان بالقدرة على الإحاطة بها، وبماهيتها أو بكيفيتها إما لأنها لا تدخل في حدود طبيعته البشرية المحدودة، وإما لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحدودة كذلك من هذه الجوانب مسألة كنه الذات الإلهية فلا العقل الإنساني ولا الكينونة الإنسانية تدركها، وليس مما تعرفه شيء يماثلها فيمكن أن تقابلها به وتقيسها عليه قال تعالى:

﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [٢].

وقال سبحانه: **﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾**[٣].

سادسها: إن العقل ينبغ أن يتحرك من أجل غايتين متداخلتين متلازمتين (غاية إيمانية، وغاية سلوكية حياتية) وكذلك فإن مجاله الذي يعمل فيه له جانبان متداخلان هما:

---

(١) انظر القرطبي - (٧/ ٥٤) في تفسير قوله تعالى: **﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾** لا تدركه أبصار القلوب، أي لا تدركه العقول فتوهمه وانظر لسان العرب لابن منظور وهو ينقل عن الزجاج قوله -في شرح الآية لا تدرك كنه حقيقته.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٣.

(٣) سورة الأنبياء: ٤٠.

١- الظواهر الكونية.

٢- والظواهر الاجتماعية.

وإن طريقته في النظر والتدبر هي الانتقال من ذلك إلى التركيب، أو إلى طرق أخرى يكتشفها لنفسه دونما قيد عليه أو حجر، وبهذا المعنى فإن القرآن الكريم يحفز العقل البشري إلى النظر في الآفاق والأنفس بأي منهج علمي وبأي وسيلة مهما تعددت المناهج ومهما سميت العلوم بأسماء متشابهة أو متباينة.

قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٢).

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (٤).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١).

---

(١) سورة يونس: ١٠١.

(٢) سورة الذاريات: ٢٠، ٢١.

(٣) سورة العنكبوت: ٢٠.

(٤) سورة الروم: ١٠.

سابعها: إن القرآن الكريم يقرر أن من يعطل طاقة العقل الممنوحة له ينزل إلى مرتبة دون الحيوان الأعجم كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ**﴾ (٢).

ثامنها: إن القرآن الكريم لم يكتف بحث العقل على العمل وترك التقليد والجمود، لكنه قد أثار أمامه مسائل وقضايا وعالجها كنماذج لما ينبغي أن يكون عليه العقل، وهو يؤدي الرسالة المنوطة به، واصطلح الناس – من بعد– على تسمية مثل هذه المسائل قضايا فلسفة أو أخلاقية أو علمية إلى غير ذلك من مسميات.

ونعود إلى عرض نماذج للمسائل التي أثارها القرآن الكريم أمام العقل ليتأساها، من هذه المسائل إشارته إلى أصل الوجود والحياة والنشأتين واتخاذ أولاهما دليلاً على إمكان الأخرى (٣)، قال الله تعالى:

﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(٤).

---

(١) سورة الرعد: ٤١.

(٢) سورة الأنفال: ٢٢.

(٣) انظر الصوفية والعقل، د/ محمد عبد الله الشرقاوي، ص ٥٤، ما بعدها بتصرف.

(٤) سورة يس: ٧٨– ٨٣.

نعود فنقرر أن القرآن حينما حدث عن المعرفة العقلية لم يكن يعنيه أن يعطينا نظرية في العقل، وإنما همه أن يعطينا العقل من جهة وظيفة الإنسان العقلية أو القلبية، أو حتى نكون من أولي الألباب وأولي النهى، ولذلك فإذا ما جئنا لوظائف الإنسان بصفته مفكرا وعاقلا ومنوطا ووظيفته الاستخلاف في الأرض، وجدنا أننا إذا عبرنا عنها باستعمال العقل فإنها لا تنحصر في العقل الذي هو مناط التكليف، وإنما تجاوز إلى العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الذي يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح [١]، بل يعم الخطاب القرآني كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصة أو وظيفة.

فمن دعوة القرآن إلى التعقل قوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [٢].

وقوله تعالى: **﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾** [٣].

ومن خطابه الذي يدعو فيه إلى التعقل بمعنى أن يكون للإنسان عقل وازع يردعه عن الشر قوله سبحانه: **﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾** [١].

---

(١) التفكير فريضة إسلامية، العقاد، دار الهلال القاهرة ص ٥، وما بعدها.

(٢) سورة البقرة: ١٦٤.

(٣) سورة العنكبوت: ٤٣.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢).

ومن خطاب القرآن الذي يريد به وظيفة الإدراك قوله تعالى ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٦).

أما خطابه الذي يريد به التعقل بمعنى التفكير والاستنتاج، فقد ورد بعبارات التفكر والفكر والنظر والبصر والتدبر والفقه والذكر والعلم وسائر العلميات الذهنية (٧) من ذلك قوله سبحانه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ (٨).

وقوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (٩).

---

(١) سورة الملك: ١٠.

(٢) سورة الأنعام: ١٥١.

(٣) سورة آل عمران: ٧.

(٤) سورة يوسف: ١١١

(٥) سورة البقرة: ١٧٩.

(٦) سورة الطور: ٣٢.

(٧) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجع الكردي، ص ٦٠٧، ٦٠٨ بتصرف.

(٨) سورة الأنعام: ٥٠.

(٩) سورة الأنعام: ٦٥.

وقوله عز وجل: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (٤).

---

(١) سورة البقرة: ٢٢١.

(٢) سورة الزمر: ٩.

(٣) سورة القصص: ٧٢.

(٤) سورة محمد: ٢٤.

مجالات المعرفة العقلية

لا ريب أن العقل هو أهم ما يميز الكينونة الإنسانية المدركة حيث يتعامل مع الكون الذي يعيش فيه، وهو مزود بالحواس التي تفتح له آفاق المعرفة لعالم الشهادة، والعقل وهو يقدم إلى المعرفة ما -في الكون من محسوسات- لا يكتفي بالإدراك الظاهري لها، وإنما يحكم بوجودها ونهايتها، ومن ثم فيدخل في مجال العقل المعرفة الحسية بالأشياء والمعرفة العقلية بها، والتي تعتمد في الطرف الأدنى منها على الأشياء المحسوسة، وتعتمد في الطرف الأعلى على ما يقف وراء المحسوسات من معنويات وقوانين عقلية، والتسليم من خلال النظر في قوانين العقل في عالم لشهادة بأن هناك ما يقف من عالم غير مشاهد ليس من حق العقل إنكاره، فضلاً عن أن إعمال العقل إعمالا سليماً يشير إلى وجوده، ولذلك -كما في اصطلاح القرآن- عندنا عالمان عالم الشهادة وعالم الغيب.

وعالم الشهادة مال فسيح للعقل من خلال ما يتميز به من معرفة ضرورية وقوانين منظمة لما تسعفه به المعرفة الحسية عن طريق الحواس، فكل ما في هذا العالم مجال للعقل ومعرفته، من أرض وسماء وجبال وأنهار وعناصر وإنسان يمكن للعقل أن يقوم بإعمال العقل فيه وإخضاع ما يمكن إخضاعه فيه لمقاييس العقل وأدوات التجربة، وكلما تقدم العلم وحصل العقل على قانون علمي في هذا الكون، فإنما هو انتصار للإنسان الرباني الذي جعل الله مهمته في الأرض، الاستخلاف فيها وعمارتها، وقد جعل الله سبحانه

في هذا الكون القابلية لأن يكون ميدانا لمعرفة الإنسان، فقال سبحانه مشيرا إلى ذلك: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنهَارَ﴾ (٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ (٤).

فالكون إذن مسخر للعقل الإنساني يبحث فيه ويصل بالنظر فيه إلى أسرار أودعها الله فيه، ولكن هذا المجال العقلي والذي تحدث عنه القرآن كثيرا، يضبطه بأن يجعل النظرة إليه فيه نظرة هادفة، تحقق للكينونة الإنسانية المدركة الغاية من وجودها وهي معرفة الله وعبادته سبحانه، وذلك لا يكون إلا برد هذا الكون وبما فيه من عظيم صنع ودقة إبداع وإحكام بناء إلى الإيمان بأن له خالقا خلقه وأبدعه وأحكمه، وهذا هو المجال الحقيقي الذي يفرق بين الإنسان وغيره من سائر الحيوانات في هذا الكون،

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) سورة إبراهيم: ٣٢، ٣٣.

(٣) سورة الجاثية: ١٣.

(٤) سورة الأعراف: ٥٤.

فمجال العقل إذن التعرف من خلال النظر في الكون وإلى خالق الكون والإنسان وخالق كل شيء، وقد تخبطت الفلسفات العقلية والمادية حينما جعلت هذا الكون بمادياته أو العقل بما فيه من قدرة على المعرفة -آلهة تقدسها فخسرت الغاية من وجودها، وضلت مناهج البحث العقلي إذ جعلت الكون الذي هو ميدان المعرفة التفصيلية للعقل إلهاً تعبده، وحجبت العقل السليم عن أن يستكمل مهمته وشطرته عن مجاله الآخر، وهو الاستنتاج من النظر في الكون والإيمان بأن هناك عالماً يقف فوق هذا الكون المشاهد هو عالم الغيب ليس هذا الكون المشاهد إلا أثراً من آثاره، إذ أن لهذا الكون صفة الارتباط فيما بين حوادثه ارتباطا يوحي بفكرة أن له سبباً أو أن له موجدا أوجده، كما يقول تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ * وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ**

(١) سورة النور: ٤٣- ٤٥.

وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ (١).

فالقرآن إذن يمضي وراء جزئيات الوجود ليربطها كلها بأصل شامل متناسق، وهو أن الله هو الذي خلق هذا الكون وخلق هذا الإنسان، وشاءت إرادته أن يجعل هذا الكون ميدانا ومجالاً للإنسان العاقل، فالكون صديق الإنسان، وميدان نظره الذي يعمق فيه الإيمان، ويكون له شارة على وجود الله سبحانه (٢).

المعرفة العقلية وتقسيمها:

أما عن قيمة هذه المعرفة فقيمتها هي قيمة الإنسان ذاته في هذا الوجود... إلى سلطة الوجود المركزي في الكون.

أما الفلسفة الواقعية وأعني بها هنا التجريبية أو المادية، التي جعلت العقل مادة أو حسا، فقد جعلت الوجود الإنساني ذا قيمة مادية وتابعا لحركة المادة والمجتمع، وجعلت نشاطه -من ثم- انعكاسا للواقع، ومن ثم فغاية ما يدعي العقل السلطة في إثباته، وتفصيله، أو غاية ما يكون مجاله، إنما هو عالم الحس والتجربة، وأنكرت هذه الفلسفة من ثمة عالم الغيب ثبوتاً وتفصيلا.

أما النظرية القرآنية للمعرفة العقلية، فإنها تنبثق من تقييم الوجود الإنساني، ومن ثم تكون خصائص هذه المعرفة وقيمتها تابعة من التصور للوجود الإنساني على ضوء

(١) سورة ق: ٦- ١١.

(٢) انظر: نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د/راجح الكردي ص ٦٤٧، وما بعدها.

مفهوم الوجود كله في الإسلام، فالإنسان -كما في تصور القرآن- مخلوق عاقل محتاج إلى الله سبحانه في خلقه وعلمه، ومكون في طبيعته من عاقل محتاج إلى الله سبحانه في خلقه وعلمه، وكلاهما مخلوق لله تعالى، ويعيش في عالم الشهادة وينتهي إلى عالم الغيب، ومن ثم فإن العقل كأداة المعرفة أو كينونة المعرفية إنما هي مشمولة بهذا التصور، فمعرفته العقلية تعمل في عالم الشهادة كميدان فسيح لها تتعرف عليه، وتكشف مجاهليه، بما أوتيت فطرته من قدرة على ذلك.

وهي مؤسسة تأسيسا يناسب هذا العمل في عالم الشهادة، كما أن لها حدودا شأن محدودية غيب الإنسان في الزمان والمكان والقدرات، ثم تسلم هذه المعرفة العقلية بعالم للغيب والذي يقف وراء عالم الشهادة - ابتداء من إيمانها بالله وهي وعالم الشهادة ليستا إلا أثرين من آثاره، وتسلم بثبوت طريق للمعرفة فوق طريق العقل، ودورها فيه الإثبات والاحتياج التام للوحي في تفاصيل عالم الغيب الذي لا تراه بحواسها.

فالعقل في عالم الشهادة له سيادة بما جعل الله له من طاقات، ولكنه محدود وعاجز عن معرفة كنه الأشياء وحقيقتها النهائية، وجعل القرآن له منهجا يربيه - في عمله في عالم الشهادة- بما ينفعه في الإيمان وتأكيده وتثبيته وبما يدعم مسيرته ويحقق هدفه من عالم الشهادة وبما ينفعه في الإيمان ويحقق هدفه من الاستخلاف على الأرض وعمارتها بعبادة الله.

أما في عالم الغيب فالعقل لا قيمة له سوى الاستدلال على وجوده والاحتياج للوحي، والتسليم التام لما يقدمه من معلومات، وله قيمة كذلك في فهم النصوص الشرعية بعد إثباتها، ولكن ليست له سلطة الحكم النهائية في حقيقة النصوص، وهو

ليس ندا للشرع، وهو بهذا إنما يقف عند حدود التكريم الرباني له كأداة عظيمة للإدراك البشري [١].

خصائص المعرفة العقلية:

تتميز المعرفة العقلية عن المعرفة الحسية بالخصائص التالية:

١- الضرورة:

وتعتبر الضرورة خاصية للمعرفة العقلية؛ لأن المعرفة ترجع إلى معلومات أولية ضرورية بحكم العقل، وإن لم تكن مكتسبة له بطريق النظر إلا أنها ملكه على كل حال، والمعرفة العقلية إنما ترجع في النهاية إلى هذه الضرورية؛ لأن المعرفة المكتسبة بالاستدلال لابد أن تعود إلى مقدمات لا يستدل عليها، وإلا وقعنا في الدور أو التسلسل كلاهما باطل فالمعلومات الضرورية أساس البرهان.

يقول الإمام الغزالي موضحا هذه الضرورة: « العلوم الكلية الضرورية من خواص العقل، إذ يحكم الإنسان بأن الشخص الواحد لا يتصور أن يكون في مكانين في حالة واحدة، وهذا حكم على كل شخص، ومعلوم أنه لم يدرك بالحس إلا بعض الأشخاص فحكمه على جميع الأشخاص زائد على ما أدركه الحس [٢]، والاعتراف بصحة ووضوح

(١) راجع الكردي، ص ٦٥٣، ٦٥٤ بتصرف.

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين (١/ ٧).

المعارف الضرورية ووضوح المعارف الأولية أمر لا يشك فيه إلا بزوال الذهن عن صحة الفطرة السليمة [١].

٢- صدق التعميم أو الكلية:

ويعني أن المعرفة العقلية تتميز بإمكان تعميم الحكم على أفراد النوع كله تعميما لا يشك في صدقه [٢]، ففي الوقت الذي تميزت فيه المعرفة الحسية بالفردية أو الجزئية، فإن العقل يدرك صورة الشيء الكلية، وهي ما أسموه بالماهية التي تدخل صورة الشيء المفرد عن طريق التجريد، وهو بالتالي لا يدرك صورة الشيء المادية، كما تمتاز المعرفة العقلية بأنها جازمة ثابتة وشاملة لأفراد موضوعها، وهي بذلك تحقق من أصولها في الفطر السليمة وحدة تتفق عليه العقول السليمة، وهي لا تتطور بحكم ضرورتها وتطور الزمان والمكان، والعقل له كذلك قدرة على تنظيم وتصنيف وتبويب الإدراك مما يقوم بتجميعه عن طريق الحواس وبما أوتي من وظائف لتجريد والتعميم.

قيمة المعرفة العقلية:

المعرفة العقلية لازمة للإنسان وذلك لكونه إنسانا، ومن ثم فإن قيمة هذه المعرفة هي قيمة الإنسان ذاته في هذا الوجود، وإن أي إفراط أو تفريط في دور هذه المعرفة وحدودها ومجالاتها، ليؤثر في تقييم الوجود الإنساني في الكون، ولذلك كان الإفراط في دور العقل في المعرفة وتقديسه ورد الوجود كله إليه في الفلسفة المثالية مؤديا إلى تقديس الإنسان وإدعائه سلطة الوجود المركزي في الكون.

---

(١) د/ زقزوق، المنهجي الفلسفي، ص ١٤٤ نقلاً عن نظرية المعرفة د/ راجح لكردي ص ٦٥٢.

(٢) نظرية المعرفة: زكي محمود، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٦٩، ص ٦٥.

موقف الإسلام من المعرفة العقلية:

يشير القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه وتعالى وهبنا الحواس؟ لندرك بها الأمور الجزئية حتى يسهل علينا المعرفة العقلية التي تصدر عن المعرفة الحسية.

ويؤكد القرآن الكريم أن المعرفة الإنسانية مطلقاً يحصلها الإنسان بعد ما يميز بالعقل.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (١).

ومن هذه الآية يظهر لنا:

١- إن الإنسان ولد بلا معارف.

٢- إنه وهب الحواس لتكون طريقه نحو العلم وأظهرها السمع والبصر.

٣- إنه وهب العقل ليستجلب معرفته من أثر الحواس وعبر عنه بلفظ الفؤاد.

ومعلوم أن الحواس والفؤاد هما طريقاً العلم والمعرفة.

ويجب على الإنسان أن يشكر ربه على هذه النعمة الجليلة، وهي نعمة العقل ومعرفته، والحواس ومعرفتها.

---

(١) سورة النحل: ٧٨.

وطالبنا الإسلام بإعمال الفكر والعقل ونظم الأدلة العقلية الموصلة لليقين دخولاً من نافذة الحواس.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (١).

ويوضح ابن رشد في (فصل المقال): معنى الاعتبار فيقول عنه إنه استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه.

وهذا طلب لاستخدام الحواس؛ لتحصيل المعرفة الحسية ليتوصل إلى المعرفة العقلية (٢).

وأسباب العلم المعروفة للخلق ثلاثة:

١- الحواس.

٢- الخبر الصادق.

٣- العقل.

وبذلك وضح لنا الإسلام أن المعرفة العقلية « طريق من طرق اليقين، وقد استحث الإسلام الإنسان لكي يسلكه».

بل إن القرآن الكريم نص على من يبتعد عن هذا الطريق حيث قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٣).

---

(١) سورة الحشر: ٢.

(٢) البعد الرابع في نظرية المعرفة د/ مصطفى غلوش ص ١٠٣، وما بعدها بتصرف.

(٣) سورة الحج: ٤٦.

وهكذا نجد أن الإسلام ارتضى العقل طريقاً للمعرفة، كما ارتضى الحس طريقاً.

فالمعرفة العقلية مثل هذا القرار، مقبولة في الشرع؛ لأنها مؤصلة للعقل.

وإذا كان هناك من قيد على هذه المعرفة، فإننا لا نجد الإسلام قد وضع قيداً عليها بالإطلاق من حيث الغاية [1].

نعم هناك قيود من حيث (المنهج) تجلت في ضرورة الالتزام بقوانين العقل نفسه ومبادئه الأولية ومناهجه المقبولة.

المعرفة اللدنية (الإشراقية):

إذا كانت المعرفة الحسية راجعة إلى الحواس، والمعرفة العقلية راجعة إلى العقل والحواس معاً، فهل كل ما تملكه الكينونة الإنسانية هما الحس والعقل فحسب؟ وهل تكون منصفين مع الفطرة البشرية إذا قلنا إن معارفها إنما تعود إلى الحس والعقل؟ وهل نستطيع أن نجزم بأنها كل أدوات الإنسان للمعرفة؟ ومن ثم أليس بعد المعرفة الحسية والعقلية نوع آخر من المعارف خارج الكينونة الإنسانية أو متصل بها أيما اتصال؟

تجيب المعرفة عن تلك الأسئلة وأن لها طرقا للوصول إليها، إن الكينونة الإنسانية تملك حسا وعقلا وإنها تشعر بأن ثمة معرفة من نوع آخر، لا تحصل بحس ولا بعقل، ولكن النفس تشعر بها، والبشرية متعارفة على مبدأ وجودها، وإن كانت المدارس الفلسفية مختلفة في التعبير عنها وتفسيرها، وهذه المعرفة التي تعرفها البشرية هي غير

(١) البعد الرابع، في نظرية المعرفة ص ١٠٣، وما بعدها.

المعرفة الحسية والعقلية -وإن كانت الكينونة البشرية -بأعلى كفايات المعرفة فيها وهو العقل تفهم وتقر بوجود تلك المعرفة التي هي من نوع جديد.

يمكننا مبدئياً أن نطلق على هذه المعرفة اسم «المعرفة اللدنية» كما سميت باعتبارها من لدن الله تعالى، وتجمع بين اسمي « المعرفة الإشراقية باصطلاح فلاسفة الإشراق، ويسميها الفلاسفة العقليون الذين لا يفسرون المعرفة تفسير إشراقيا المعرفة الحدسية، وتسميتها باللدنية أي من لدن الله كاسم جامع لهذه المفاهيم [١].

المعرفة الصوفية:

أما المعرفة الصوفية التي ظهر أصحابها في نهاية القرن الثاني الهجري في بلاد ما بين النهرين فيه -كما لا يخفى على الباحث المدقق- من ميادين التفكير الفلسفي، وإن حاول أصحاب التصوف أن يلبسوه ثوباً قرآنيا عن طريق تأويل بعض الآيات الكريمة من كتاب الله [٢]، فبصمات نظرية الفيض الإلهي وأسرار الحروف ما هي إلا صورة منقحة لما قال به أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس من فلاسفة اليونان، وآثار الفلسفة الهندية والفارسية بادية على أفكارها أيضاً، إلا أن هذا القول لا ينفي المعرفة اللدنية التي تعطي -من رب العالمين- لبعض خاصة أوليائهن الذين يخفون أمرها تواضعا وشكرا لله تعالى على ما أنعم عليهم، فهذا أمر لا علاقة له بالتصوف الفلسفي، لا من قريب ولا من بعيد.

---

(١) المصدر السابق ص ٦٥٩، ٦٦٠ بتصرف.

(٢) الطوسي (أبو نصر السراج): اللمع ص ١٧٩، نقلاً عن نظرية المعرفة د/ راجع الكريد ص ٤٤.

ولا جدال في أن المعرفة الإشراقية طريق من طرق المعرفة الصحيحة وهذا الطريق وإن اختلفت تسمياته وتعددت تعريفاته لكنه في النهاية يعني المعرفة التي يدركها الإنسان بذاته لا بطريق الحس أو العقل.

وإن كان لا ينكرها حس أو عقل ولأننا نعتبر الإشراق البعد الثالث لنظرية المعرفة فإننا نعتمده ولا نمنعه.

ولكننا فقط -نمنع- في جانب الإشراق -أمراً في غاية الخطورة وهو قصر المعرفة على الجانب الإشراقي وحده وعدم اعتباره بقية الجوانب الأخرى للمعرفة.

إن هذا الاتجاه دعوتها لا يمكن قبولها إذ أنها تقدح في بداهة الحس ويقين العقل، وماذا يبقى للإنسان بعد تجريده منهما.

وعموما فإن المسلمين لم ينكروا الإشراق كمصدر للمعرفة [١].

الإشراق والصوفية:

من يقف عند الإشراق:

نجد من الصوفية من يعتمد على الذوق والمواجيد أكثر مما يعتمد على المنطق؛ لأن العقل في نظرها أداة غيَر صالحة [٢].

إن استطاع إدراك ظواهر الأشياء فهو لا يصلح مطلقاً في إدراك الحقِيقة [١].

---

(١) البعد الرابع في نظرية المعرفة، د/ مصطفى غلوش، ص ١٠٧، ١٠٨ بتصرف.

(٢) من كتاب (ظهر الإسلام) أحمد أمين: (٤/ ١٤٩).

وبذلك انطلق التصوف إلى وضع نظريته في المعرفة والتي قامت على الإشراق، الذي يهجم على القلب -على حد تعبيرهم- كأنها ألقيت فيه من حيث لا يدري، وهم ينتظرونها حتى تتجلى عليهم ويسمون هذه المعرفة باسم المكاشفة.

ولكن مما لا شك فيه أن المعرفة الإشراقية تطورت على يد بعض رجال الإشراق، فكانت العبارات التي أخرجت المعرفة الإشراقية من دائرتها في العطاء المعرفي إلى دائرة أخرى لا علاقة لها بنظرية المعرفة.

فكان الشطح في الوجد، وكانت العبارات الغامضة أو التي تشير بما لا يمكن أن يكون صلة أو معرفة بل يفهم منها الانقطاع والجهالة، فكان أن وصفوا بالاتحاد والحلول ووحدة الوجود.

من قال بالإشراق كمرحلة:

لا شك أن كثيرًا من المتصوفة قالوا بالإشراق على النحو الذي لا يخل بجوانب المعرفة القبلية حسية كانت أو عقلية حتى جاء الإشراق الذي قالوا به منسجما مع طبيعة النفس البشرية السموية وتقبلها للأمور السليمة.

ونكاد لا نختلف مع هؤلاء المتصوفة عند قولهم الإشراق، إذا لم يمزجوه بتيارات الفكر الدخيل والذي وجد في المحيط الإسلامي من الفلسفات والأفلاطونية بالذات.

طرق تحصيل المعرفة في المنهج الإشراقي:

هناك مبدأين في طريق الوصل عند الإشراقيين هما:

---

(١) ويرى أفلاطون أن العقل ليس له القدرة على التركيب والاستدلال، ولا القدرة له على تحقيق الفضيلة أو الحكم على الرذيلة (١/ ١٧٩) من كتاب نشأة الفكر الفلسفي) د/ النشار.

١- اعتبار الجانب المادي من الإنسان وحياته البدنية عائقا للروح عن التسامي إلى الملك الأعلى وعن الشفافية التي تطير بها إلى عالم الأرواح.

٢- النظر إلى الحواس والعقل والعلم والقياس والاستدلال والنقل والتحليل على أنها حواجز مانعة وحجب تحول بين الإنسان وبين معرفة الحقيقة معرفة يقينية.

وخلاصة القول هنا:

أن المعرفة الإشراقية لديهم أسمى من المعرفة الحسية التي لا تتجاوز ظواهر الأشياء، وأسمى من المعرفة العقلية المعتمدة على المدركات الحسية، وأنه لذلك لا يمكن الحصول عليها إلا بتصفية النفس وقطع علائق المادة عنها، هذا هو منهج الإشراقيين عموماً، أما الصوفية في الإسلام فمنهجهم في هذا الشأن أوسع أبعادا.

ومن أصول هذا المنهج ضرورة اتخاذ مريد السلوك شيخا يكون له هادياً ومرشدا، وينتهي هذا المعراج بالسالك إذا قام بحقه في التأمل الباطني والمجاهدة الروحية والرياضة القلبية إلى اليقين، أما أصول المعرفة الإشراقية عند المتصوفة المسلمين فهي ليست خاصة بالصوفية بل لها أصول في مصر والهند حيث كانت هناك مراكز كبيرة للحركة الإشراقية -منذ قدم الزمان- فالبراهمة عند الهنود كانوا يمثلون طبقة الإشراقيين القادرين على معرفة الغيب عن طريق نور البصيرة وكذلك الكهنة عند القدماء المصريين، أما في الإسلام فأصحاب هذا النمط من المعرفة هم المتصوفة، وقد اختلف الباحثون في مذهب التصوف عندهم، فبعضهم يرجع التصوف إلى أصول هندية أو مجوسية أو الإشراقية

الأفلاطونية وآخرون يعودون به إلى أصول إسلامية يتمثل بمنهج لزهد والإعراض عن الدنيا، كما يعودون بمنهج المعرفة عندهم إلى الإلهام والتحديث الذي أقره الشرع.

أما أصحاب الرأي الأول فيستندون إلى اتخاذ بعض الصوفية كبار الإشراقيين القدماء أئمة يعجبون بهم، ويقدسون منهجهم كما استندوا إلى أن بعض الصوفية تجاوزوا حدود الشريعة الإسلامية بارتكابهم ما يتناقض ومطالب الشريعة وأحكامها.

أما أصحاب الرأي الثاني: فهم يستندون في منهجهم في المعرفة إلى بعض الآيات القرآنية من مثل قوله تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [١]. كما يستندون إلى تحنث الرسول صلى الله عليه وسلم في غار جراء قبل البعث، أما الآيات القرآنية التي ذكروها فينبغي للمسلم ألا يتعسف في تفسيرها بما لا تحتمله قوله سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [٢].

يعني نوفقهم لسلوك الصراط المستقيم ونبصرهم طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

وقوله سبحانه: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾، قال ابن كثير «فرقانا» أي مخرجاً وفصلا بين الحق والباطل.

أما قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [٣].

فمعناها آيات للمتفكرين الناظرين المتأملين في الأمر، فهذه الآيات تدل على التوفيق والتبصير في الدين والدنيا بأي طريق كان، وليس خاصاً بالكشف، وقد روت

---

(١) سورة الأنفال: ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٩.

(٣) سورة الحجر: ٧٥.

السيدة عائشة رضي الله عنها في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر بن الخطاب منهم».

وقد فسر العلماء التحديث الوارد في هذه الأحاديث بالإلهام، وقد أثبت العلماء من هذا الحديث كرامات الأولياء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وأهل السنة متفقون على جواز وجود الكرامات في هذه الأمة وهي نوعان:

نوع من باب العلم، ونوع من باب القدرة.

أما تحنث الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة فليس فيه على دليل على مشروعيته، فالثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ترك هذا التحنث بعد البعثة، ولم يعد إليه إلا أنه لا منازعة في أن الإسلام يقر بالإلهام مصدراً للمعرفة لبعض الناس، وهذا الإلهام المعترف به في الإسلام له شرط في ذاته وشرط في مدعيه، أما الشرط المتعلق بمدعيه فهو الالتزام الصادق بالشرع الإسلامي، وقد أخطأ كثير من الصوفية حيث جعلوا وسيلة الإشراق الفكري لديهم عدم الانشغال بالعبادات المشروعة والحق أنه أعظم مصادر العلم النافع فهو تدبر كلام الله سبحانه وتعالى، وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم والعمل الصالح المتمثل في العبادة الصالحة وفق شرع الله أعظم وسائل جلب العلم فلم يسلك رسول الله أو صحابته مسالك هؤلاء في مقاماتهم وأحوالهم وقتالهم.

أما الشرط المتعلق بالإلهام ذاته فإنه يكون خاضعا لقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها وذلك بأن يعرض عليها ويوزن بمعيارها فإن كان مأموراً به أو كان مباحاً وإلا رد.

قال ابن تيمية رحمه الله: إن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وليس فيهم معصوم يصوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير الكتاب والسنة وذلك مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل.

أما أن يتجاوز به حدود ذلك ليصبح مشاركة الله في علمه الأزلي نتيجة الاتحاد به حال الوصول، وانطباعا لجميع ما في اللوح المحفوظ في قلب العارف فهذا ما لا يقره الدين بل ينفيه الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم نفياً قاطعا، وقد قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (١).

وقال الشوكاني وفي هذه الآية ما يدفع أباطيل الكهان والمنجمين والرمليين وغيرهم من المدعين.

مصدر الإلهام في الإسلام ثلاثة أنواع:

١- إلهام من الله سبحانه وتعالى للعبد.

٢- إلهام من الجن والشياطين سواء كان هذا الإلهام خطاباً يسمعه بأذنه أو إلقاء يلقيه الشيطان في قلبه.

٣- إلهام ذاتي ينبع من النفس ويعود إليها.

---

(١) سورة الأنعام: ٥٩.

ولهذا فإن طبيعة المعرفة الإلهامية لا يمكن أن ترقي إلى مرتبة اليقين في تحديد مصدرها، فهي واحدة من هذه الثلاثة حتى وإن شعر الملهم من خلال القرائن المصاحبة للإلهام بأنه إلهي أو من قبل الملك أو يكون أمراً بخير أو تحذيرا من سوء، ذلك أن الشيطان قد يفعل ذلك من قبيل الاستدراج وبناء على انتفاء اليقينية في مصدره ينتفي بلوغه مرتبة العلم اليقيني بدون القرائن الرافعة له كما إذا تأيد بالنص الشرعي ومن ثم فغاية ما يفيده الإلهام هو الظن إذا صدر من مسلم ملتزم بالشريعة ومشهود له بالتقوى والصلاح في السريرة والسيرة، وقد بين ابن تيمية رحمه الله أن الذين أنكروا كون الإلهام طريقاً على الإطلاق أخطأوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقاً شرعياً على الإطلاق.

وأوضح أن الوضع السليم للإلهام في مجال الأحكام الشرعية بأنه يكون في مسائل فيها الأدلة الشرعية الظاهرة نقلية أو عقلية بحكم من الأحكام فتكون مبهمة الإلهام، ونقول إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها توضيحا وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى فإلهامه من دليل في حقه.

وخلاصة ما سبق بيانه:

أن الإسلام أقر الإلهام بخصائصه السابقة والاحتمال الوارد عليه مصدراً للمعرفة يكرم الله بعض عباده بإفاضة بعض علمه عليهم من خلاله.

ومن ذلك نرى أن المعرفة الإشراقية شيء مغاير للمعرفة العقلية والحسية والوحي الذي جاء به الأنبياء وأن مصدرها كما يقول الإشراقيون هو البصيرة وحكم الإسلام هنا يتناول مقدماتها، كما يتناولها بذاتها، فأما المقدمات فينظر فيها ويحكم عليها من حيث كونها مشروعة أو مباحة أو منهيًا عنها، فإن كان لها أصل في الشريعة وهدى

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وصحابته كالتعفف عن الحرام واتقاء الشبهات ورقابة المطعم والمشرب فهي مباحة. وإن كانت المقدمات كالعزلة والخلوة والتخفف من الأكل ولشرب وألا يترتب منه التفريط في مطلوب في الدين أو ارتكاب المنهي عنه فإنها تكون مباحة في ذاتها، وإن كانت من الأمور المحرمة في الشرع مما ابتدع في الدين ولم يأذن به الله كأخذ النفس بما يضاد فطرتها التي فطرها الله عليها فهذه مردودة في الدين غير مقبولة عند الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »، وأما الكشف ذاته فهو يعرض على الشريعة فإن كان مخالفاً لها متصادما مع أحكامها فهو باطل مردود، بغض النظر عن مقدماته صحيحة كانت أو فاسدة، وإن جاء متفقا فعلها فهو حق مقبول وبناء عليه فلا اضطراد بين المقدمات ونتائجها فلا يكون الكشف الحاصل المستقيم المقدمات مسلماً بناء على سلامة تلك المقدمات بل لابد من عرضه هو على الشريعة ذاتها، وفي نهاية هذا البحث لابد من الإشارة إلى مسائل ثلاث:

١- إن البصيرة التي هي مصدر المعرفة الإشراقية لدى الإشراقيين لا تعدو أن تكون ملكه كسائر ملكات الإنسان الأخرى محدودة القدرة والمدى، ثم إن هذه القوة لا يمكن باعتراف كبارهم أن تتجدد من التأثيرات الخارجية ومفعول الحواس الكلية، ثم إن المعرفة المستنادة منها محصورة في الخاص المكاشف لا تتجاوزه إلى غيره كالأحكام المستفادة من الأدلة الأخرى وهذه خاصية من خواصها وهي من أكبر أسباب الاختلاف في صحة الكشف وما يخبر به المكاشفون.

٢- إن الرؤيا تتفق مع الكشف في الطبيعة، قال ابن القيم رحمه الله: « والرؤيا كالكشف منها رحماني ومنها نفساني ومنها شيطاني»، وقد روى البخاري ومسلم

وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الرؤيا ثلاثة: رؤيا من الله، ورؤيا تخزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث الرجل به نفسه في اليقظة».

وننتقل إلى الحديث عن إلهام الأنبياء ورؤياهم:

أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم إلهامهم ورؤياهم وحي معصوم متيقن مصدره الله سبحانه وأنه حق لا ريب فيه، ولهذا أقدم نبي الله إبراهيم على ذبح ابنه بناء على الرؤيا التي رأى فيها في المنام أن الله يأمره بذلك، وقال له ابنه يا أبتي افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فاستجابة الخليل لهذه الرؤيا وحلمه بمقتضاها إنما قطعه بأنها وحي إلهي هذا هو الإلهام.

رابعًا المعرفة الوحيية:

إن المعرفة لا تنحصر في معرفة عالم الشهادة بما أوتي الإنسان فيها من طرق للمعرفة من حس وعقل، وإنما تمتد هذه المعرفة لتضم إلى عام الشهادة عالم الغيب، والذي يطلبه العقل الإنساني ويسلم بوجوده ولكن هذا العقل بما أوتي من فاعلية من خلال طبيعته، وتكوينه، ومن خلال تعامله في عالم الشهادة، لا يستطيع أن يقدم شيئاً تفصيليا للمعرفة في عالم الغيب، سوى التسليم بوجوده من خلال قوانين عالم الشهادة نفسه، من قوانين سببية وعقلية، ومن خلال دلالة آثار عالم الغيب في عالم الشهادة على عالم الغيب نفسه، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقدم لنا معرفة شاملة ومفصلة ومحددة لعالم الغيب، فإنه لا يغلق الباب أمام طريق آخر، ليس إنسانيا، يثق فيه العقل ويصدق به من خلال قوانين العقل نفسه، ويقر له بالعصمة، ثم ينتقل دوره إلى فهم ما يقدمه هذا الطريق الجديد، ولا يصح أن يكون هذا الطريق الجديد عقلاً

إنسانيا كما قلنا، لأن هذا العقل عاجز ومحدود، بل لابد أن يكون ربانيا، خارجاً عن نطاق تدخل الإنسان، وكونه ربانيا يعطيه ما تقتضيه هذه الربانية من عصمة وصدق ويقين، وما إلى ذلك، والله سبحانه لا يتصل به الإنسان اتصالاً ملموساً ولا محسوسا؛ لأن الله سبحانه فوق أن يحد في حس أو عقل، وإن كان العقل يسلم بوجوده من خلال النظر إلى آثاره المحسوسة، ولذا فإنه سبحانه كما جعل صلته التعليمية بعباده أن خلق لهم حسا وعقلا، فإنه سبحانه جعل لهم من بينهم أنبياء ورسلا يبلغونهم علماً جديداً على حواسهم وعقولهم، واعتمد لهم طريقاً يبلغ به الأنبياء -الذين هم بشر- ما يريد الله أن يبلغه للناس وهذا الطريق هو طريق الوحي[١].

المراد بالوحي:

كلمة وحي: كلمة أصيلة في اللغة العربية، وقد ورد لفظ الوحي ليدل على مجموعة معان، مناسبة للإعلام في الخفاء، قال الزمخشري: وحي، أوحي إليه، وأوحى بمعنى، ووحيت إليه إذا كلمته عما تخفيه عن غيره، ووحي وحيا: كتب » [٢].

وتدل هذه المادة على الإخبار السريع، أو على الإعلام بمختلف صوره.

قال الفيروز آبادي: « الوحي: الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي، وكل ما ألقيته إلى غيرك، والصوت يكون في الناس وغيرهم كالوحي والوحاة وأوحي إليه بعثه وألهمه، ونفسه وقع فيها خوف.

---

(١) انظر المعرفة بين القرآن والفلسفة، د/ راجح الكردي ص ٧٠٣ وما بعدها بتصرف.

(٢) انظر: أساس البلاغة الزمخشري، ص: ١٠١ مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي ص ٧١٣.

والوحي: السيد الكبير، والنار والملك والعجلة والإسراع، ووحي وتوحي: أسرع، وشيء وحي: عجل، واستوحاه: حركه ودعاه ليرسله واستفهمه ووحاه توحية: عجله [١].

ونلاحظ أن الشرع استعمل كلمة الوحي في غالب الاستعمال؛ لتدل على الإعلام الخفي والسريع والإلهام، حتى جعل القول الجامع في معنى الوحي اللغوي أنه الإعلام الخفي السريع الخاص الذي يوجه إليه بحيث يخفي على غيره.

ويمكننا إجمال الآراء في أصل معنى الوحي في الأقوال التالية [٢]:

- إنه إسرار وإعلام في خفاء ويدخل في ذلك الإلهام.
- كما إنه في سرعة من الوحي لأن الوحي يجيء بسرعة ويتلقى بسرعة.
- وإنه إعلام يدل على السرعة والخفاء معاً.
- إنه إلقاء الشيء إلى الغير فأصل الإيحاء إلقاء الوحي إلى الموحي إليه.

الوحي في الاصطلاح:

(١) القاموس المحيط -الفيروز أبادي- (٤/ ٣٩٩).

(٢) الوحي والإسلام، د/ مصطفى عبد الرازق -الدين- عيسي الحلبي، القاهرة ١٩٤٥، ص ٤٥: ٤٦- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ط ٦ مكتبة القاهرة، القاهرة ١٩٦٠، ص ٣٤.

الوحي في الشرع هو: إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، فالحكم الشرعي كوجوب الصلاة والصيام وحرمة الزنا والسرقة، وغير الحكم الشرعي كالقصص القرآني وأحوال الآخرة من بعث وجزاء وحساب وغير ذلك من مسائل العقيدة.

ويذكر الشيخ محمد عبده في هذا المقام تعريفات الوحي فيقول:

وقد عرفوه -الوحي- شرعاً بأنه: كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه.

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه: عرفان يجده شخص في نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت.

ويفرق بينه وبين (الإلهام) بأن الإلهام: وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

وقد نقل عن ابن حجر أنه عرف الوحي الشرعي بأنه (الإعلام بالشرع).

وقد نقل عن صاحب المنار أنه عرف الوحي للأنبياء بأنه: ما يلقيه إليهم من العلم لضروري الذي يخفيه عن غيرهم بعد أن يكون أعد أرواحهم لتلقيه بواسطة الملك أو غير واسطة.

وذكر الراغب الأصفهاني أنه يقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه (الوحي)[1].

ضرورة الوحي في المعرفة:

---

(١) البعد الرابع في نظرية المعرفة د/ مصطفى غلوش، ص ١٤٥، ١٤٦، بتصرف.

إذا كان للإنسان حواس يحس بها، وعقل يعقل به، والإنسان مخلوق لله سبحانه وتعالى، يعيش في هذا الكون مع بني جنسه، ويتعامل مع عناصر الكون من حيوان وجماد، فهل يستطيع بحسه وعقله أن يعيش ويؤدي دوره في هذا الكون، ويقوم بوظيفة الخلافة في الأرض ويتوجه في كل ما يعمل إلى الله خالقه سبحانه؟ وهل يستطيع بهذا كله أن يحدد وظيفته وأن تكون له معرفة صحيحة بخالقه وبما يطلب منه؟ وهل يستطيع بهذه الكفايات -الحس والعقل- أن يعرف ما ينتظره بعد موته؟

ومن ثم فالإنسان في أشد الحاجة إلى مصدر آخر للمعرفة، يسلمه عقله، وتتطلبه فطرته، ويكرمه به ربه رحمة منه وفضلا، أنه طريق النبوة، ومصدرها الوحي النازل من رب العالمين على من اصطفاه من خلقه، كي يسعف هذه الفطرة بما فيه من حس مرهف وعقل سليم مفكر، بطريق رباني دقيق ثابت: شامل للمعرفة يضمن لها أن يؤدي دور الخلافة في الأرض، وأن تقوم بالعبادة الشاملة التي خلقت من أجلها، يصدق فيها قوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١).

فالسعادة في الأرض والحرية في عبادة الله وحده، والطمأنينة إلى سعادة بعد الموت، كلها متطلبات الفطرة السليمة ولا يحقق هذه مثل الوحي أو النبوة طريقاً للمعرفة والتزاما بما تقدمه هذه المعرفة اليقينية.

الوحي ممكن في نظر العقل:

(١) سورة الذاريات: ٥٦.

وليس في اعتماد النبوة طريقاً للمعرفة هضم لقيمة العقل والحس ودورهما في المعرفة، ذلك أن للحس والعقل ميدانا لا يتجاوزانه –هو عالم الشهادة– كما أنه يقع في دائرة العقل نفسه التسليم بأنه نفسه محدود بعالم الشهادة وقوانينها، ولا يستطيع إنكار ميدان آخر وطريق آخر للمعرفة، فضلاً عن أنه من خلال نظره السليم إلى عالم الشهادة ومن خلال قوانينه يستطيع أن يحكم بمبدأ وجود عالم الغيب، والذي لا يمثل عالم الشهادة إلا أثراً من آثاره –عالم الغيب– فكيف يدعي العقل إذن أن فيه الكفاية النهائية للمعرفة، وهو نفسه لا يستطيع أن يدعي عصمة معرفته العقلية، بدلالة اختلاف العقول فيما بينها في القضية الواحدة بل واختلاف العقل مع نفسه في القضية الواحدة أيضاً بين وقت وآخر؟

وعلى ذلك فطريق الوحي ينال من إمكان تسليم العقل وجوازه، ولا يقف العقل السليم منه موقف العداء، فضلاً عن أن طريق الوحي لا يحرم العقل دوره في المعرفة، حتى جعل ثبوته طريقاً للمعرفة –داخلاً في إمكان تسليمه– أن تسليم العقل واستدلاله– وجعل مضمونه داخلاً في حدود مجاله بالفهم والشرح [1].

لا كفاية في العقل:

أما أن العقول قاصرة، فأمر لا ريب فيه، في كل مجالات الحياة والكون بل والإنسان نفسه.

(١) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة د/ راجح الكردي، ص ٧١٠ البعد الرابع في نظرية المعرفة، د/ مصطفى غلوش، ص ١٤٥وما بعدها.

في الحقيقة لقد بذل الجنس البشري جهدا لكي يعرف نفسه، ولكن على الرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظة التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فمعظم الأسئلة التي يوجهها أولئك الذين يدرسون الجنس البشري إلى أنفسهم تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة، كيف تتحد جزئيات المواد الكيميائية لكي تكون المركب والأعضاء المؤقتة للخلية؟ وما طبيعة تكويننا النفساني والفسيولوجي؟

الحاجة إلى الوحي في الاعتقاد:

إن التصور الاعتقادي للألوهية وصفاتها ومقتضياتها أو علم الغيب بحقيقته وتفصيلاته والتي تعد -هذه القضية- أساسا له ليس في قدرة العقل أن يقدم -فيه- معرفة دقيقة، فإذا كان الإنسان بما أولى من عقل يفكر وينظر ويتفكر في نفسه وفي عالم الشهادة من حوله فإنه يستطيع أن يؤمن بوجود أثر، ترجع إليه هذه الآثار، ولكن كيف تتفق العقول على تصور موحد لهذا الإله؟ أليست الفلسفات البشرية قديمها وحديثها تعيش في تيه وركام من التصورات المختلفة للألوهية؟ وما قيمة ألوهية ليست واضحة ومتفقا عليها في حياة الناس؟

فالوحي إذن -أو طريق النبوة- يعطينا تصوراً سليماً صحيحاً للعقيدة في أهم قضاياها وهي الألوهية، ومن ثم كان أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (١).

وهي آيات تتسم بالوضوح التام لأهم قضية تبني عليها البشرية فكرها وتخطيطها وعملها وهي الخالقية لله والمخلوقية للإنسانية، والعلم الشامل لله، والمعرفة للإنسانية المتعلمة من الله، يعلنها طريق للمعرفة ليس إنسانيا، وإنما وحي رباني على بشر نبي مرسل إلى الناس كافة.

والدعوة إلى توحيد الله هي أهم ما يقدمه هذا الوحي للإنسان ذلك أن عقيدة التوحيد هي الحقيقة الأساسية في الأديان السماوية، والمميزة لها عن التصورات الفلسفية السائدة من الأرض.

الحاجة إلى الوحي في التشريع:

وإذا كان الإنسان عارفا بأن له ربا يوحده، فمقتضيات هذه الوحدانية في الاعتقاد تقديم شعائر معينة ومحدودة ومفصلة ومقسمة ومؤقتة، وتلقي شرائع وقوانين ونظم تنظم بها حياته الفردية والأسرية، وتقوم بها حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتزام بأخلاق معينة تنبثق من ذلك التصور وتحوط تلك النظم في تعامله معها.

---

(١) سورة العلق: ١- ٥.

أقول: فمقتضيات الوحدانية من ذلك كله، أني للعقل أن يعرفها أو أن يدعي بأنه يستطيع أن يقدم فيها معرفة سليمة شافية وافية موحدة؟ وكل هذه المقتضيات يشملها الوجود الإنساني في هذا الكون في الحياة الدنيا، ومن ثم فإنه لا يعلم حقيقتها وحقيقة ما يلزم الإنسان منها إلا الله سبحانه خالق الإنسان والأشياء جميعاً وهو يقرر ذلك فيقول: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [١].

وكيف تصل إلى الإنسان بغير طريق معصوم معتمد منه سبحانه، ويقع في دائرة تسليم العقل بالأدلة عليه ألا وهو وطريق النبوة أو عن طريق ظاهرة الوحي [٢].

خصائص المعرفة الوحيية:

١ – الاختصاص في طريقها:

تتميز المعرفة النبوية عن طريق الوحي بأنها ليست عامة وإنما هي لآحاد معدودين مخصوصين من البشر هم الأنبياء الذي اصطفاهم الله لتبليغ شرعه إلى الناس، والخصوصية هنا إنما هي في كون الوحي خاصاً بالمعرفة، ليس في موضوع المعرفة النبوية؛ لأن موضوع المعرفة النبوية لا يخاطب به الناس جميعاً ولكن الذي يبلغهم ويوصلهم هو

(١) سورة الملك: ١٤.

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د/ راجح الكردي ص ٧١١، وما بعدها بتصرف.

النبي وبعد ذلك بالسمع أو الخبر، وإنما خصوصية معناها أنها ليست عامة لكل الناس كالحواس والعقل، وبالتالي فلا تخضع لقوانين الحس والعقل أو عالم الشهادة من حيث الفطرة والاكتساب.

ولا يتصل إليه برياضة أو حتى بمجرد الاستقامة في الفطرة، وإن كان الأنبياء سليمي الفطرة ومحفوظين برعاية الله وحفظه، فذلك ما لا دخل للنبي نفسه فيه من حيث هو بشر، بل إنهم -الأنبياء - لم يكونوا يعرفون بأنهم سيكونون أنبياء إلا حينما أعلمهم الله وكلفهم بذلك كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ (١).

وكما قال عز وجل: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ (٢).

فالنبوة إذن خاصة في معرفتها وخاصة عن طريق الوحي.

ولا تحصل هذه المعرفة إلا بشكل فجائي بإذن الله ووحيه دونما ترقب أو كسب أو سير في طريق التدرج، وأي إنسان لن يحصل هذه المعرفة؛ لأنها طريق رباني، وليس بشريا، أي باختيار الله واصطفائه لا بجهد البشر وكسبهم.

ربانية المعرفة النبوية في مصدرها:

(١) سورة الشورى: ٥٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٨.

ومن ثم فتختص هذه المعرفة بأنها ربانية وكافة ما تختص به هذه المعرفة بعد ذلك إنما تعود لهذه الخصيصة وتنبثق منها، فالعلم الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جاء من عند الله بكل خصائصه ومقوماته وتلقوه كلاما بهذه الخصائص والمقومات، لا يزيدون عليه شيئا ولا ينقصون منه شيئا، وقد تكفل الله تعالى بجعل أنبيائه معصومين من الخطأ حتى يتم التبليغ وتصل هذه المعرفة إلى البشر سليمة خالية من عيوب البشر كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾[1].

وكما قال عز وجل:﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[2] .

ومن ثم فإن الربانية أولى خصائص هذه المعرفة، ومصدر هذه الخصائص كذلك، فهي علم موحي به من الله سبحانه، ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره، وبذلك يتميز عن التصورات الفلسفية أو العقلية التي ينشئها البحث الفكري سواء عن الحقيقة الإلهية أو الحقيقة الكونية أو الحقيقة الإنسانية والارتباطات والعلاقات القائمة بين هذه الحقائق.

ومن هذه الجوانب التي تعجز الكينونة البشرية عن الدخول إلى مجالها ومعرفتها، وتختص بها المعرفة النبوية بميزتها الربانية من هذه الجوانب، الذات الإلهية كنهها وصفاتها فهي مما لا تدركه العقول، ولا تماثلها شيء من الأشياء التي تعرفها حتى يمكن أن تقابله

(١) سورة الحاقة: ٤٤- ٤٧.

(٢) سورة النجم: ١ - ٥ .

بها ونقيسها عليه [١] ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢] . وقال سبحانه ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [٣]، وقال تعالى:﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾.

الثبات:

فالمعرفة عن طريق الوحي صادرة عن الله سبحانه المتره عن التغير والأهواء والتأثير بالعوارض، بينما المعرفة الحسية والعقلية قد تتغيران تباعا لبعض الظروف في الحياة والواقع وتبعا للأوضاع.

الشمول والتكامل والعموم والخلود:

وهذه المعرفة ومن ثم شاملة لكل الحقائق الثابتة والمتحركة ولعالمي الغيب والشهادة ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [٤]، وهي شاملة لحقائق ،لألوهية والخالقية والكون المخلوق ولحقائق الإنسان ولحقائق الاعتقاد والعمل، ولكل أفراد الجنس البشري لا وجه فهيا للاختصاص بفئة دون أخرى فمضمونها إلى جميع الناس.

التوازن:

وشمول هذه المعرفة شمول متوازن ومن أبرز مظاهره التوازن بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به والجانب الذي تتلقاه لتدركه وتبحث حججه

---

(١) المصدر السابق، ص ٧٨ وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة الشورى: ١١.

(٣) سورة النحل: ٧٤.

(٤) سورة الحشر: ٢٢.

وبراهينه وتحاول معرفة علله، كذلك التوازن في العقيدة ذاتها التي تجمع بين الإيمان بالمشاهد والإيمان بالغيب، والتوازن الذي يجمع بين العلم والعمل والتوازن بين حرية الإرادة الإنسانية وشمول الرقابة الربانية والتوازن في المنهج الذي يربي الروح والعقل والنفس وسائر مكونات الكينونة الإنسانية، والتوازن بين فردية الإنسان وجماعته وبين تكوينه المادي والروحي، والتوازن بين علاقة العبد بربه بين موحيات الخوف والرهبة وموحيات الطمأنينة والأمن، والتوازن بين فاعلية الإنسان المستخلف في الأرض وبين ربانية خلقه وربانية توجهه إلى الله بعبادته وحده.

الإيجابية:

ومن ثم فإن في هذه المعرفة إيجابية فاعلة في علاقة الله سبحانه بالكون والحياة والإنسان وإيجابية كذلك من جهة الإنسان ذاته في حدود المجال الإنساني وحدود الاستخلاف في الأرض والإيجابية ظاهرة كذلك في العقيدة الدافعة إلى عبادة الله عبادة سليمة بعيدة عن أن تكون مجرد علاقة فكرية أو عقلية بين عقل إنساني وإله هو غاية ما يكون في التصور الفلسفي عقلا، بل هي العلاقة بين الذات المخلوقة متوجهة إلى الذات الخالقة التي لها صفات دافعة للإنسان لأنه يتخلق بأخلاق الله عز وجل بعيدا عن التجسيم والتعطيل وإنما بتتريه قال عنه سبحانه: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[1].

الواقعة أو العملية:

(١) سورة الشورى: ١١.

المعرفة النبوية تتعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الإيجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة ولا مع مثاليات لا مقابل لها، كما أن تنظيم هذه المعرفة للحياة البشرية يتسم بقابلية التحقق الواقعي أو العملية في الحياة.

ومن ثم كان المنهج الرباني الذي نقدمه هذه لمعرفة النبوية للحياة البشرية منهجا واقعيا بهذا الهم وبهذه الأبعاد لمفهوم الواقعية، فهو منهاج يرتفع بهذا الإنسان معترفا بواقعيته إلى آفاق سامية في حدود طاقاته الواقعية قال تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا**﴾[١]، ويحاسبها على كسبها الواقعي حيث قال سبحانه وتعالى: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾[٢]، وقال عز وجل: ﴿ **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾[٣].

ويقيم لها الحجة الواقعية على أحقيته وعلى النهاية التي ستقف بها وستعرض بها على الله يوم الجزاء، فلا تنتحل المعاذير يقول تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ **لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ** ﴾[٥]، وهو يحل لها كافة مشاكلها الواقعية من أمور أسرية، واجتماعية وسياسية واقتصادية، وغير ذلك من الأمور بما يحقق لها التناسق والانسجام والتوازن والشمول والإيجابية والواقعية

---

(١) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٦.

(٣) سورة الأنعام: ١٦٤.

(٤) سورة الإسراء: ١٥.

(٥) سورة النساء: ١٦٥.

قال تعالى [١] ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

نظرية المعرفة الإسلامية مميزاتها وثمراتها:

إن المعرفة المنضبطة بمفاهيم الإسلام ونصوص الوحي الموظفة لكل الملكات والوسائل المعرفية الممنوحة من الله تعالى للإنسان هي المقصود بالمعرفة الإسلامية، وهذه المعرفة تتميز على كل نظريات المعرفة الإنسانية بميزتين أساسيتين هما [٣].

أولا: المميزات:

١- التلاؤم بين المعرفة والمنهج المستخدم:

إن لكل نوع من المعرفة منهجا يلائمه، بحيث تتولد المعرفة الصحيحة من تطبيق المنهج المناسب لكل مجال من مجالات المعرفة، وعدم مراعاة التناسب بين المنهج والموضوع يؤدي إلى فساد كبير في المجال المعرفي، وهذا ما وقع فيه الفكر الغربي الحديث، حيث حكم العلماء هناك مناهج في مجالات لا تناسبها، مثلما حكم أصحاب الاتجاه المادي المنهج التجريبي المادي، والذي مجاله العلوم الطبيعية والمحسوسات في قضايا ما وراء المادة، ورأينا أصحاب هذا الاتجاه ينكرون الغيبيات ويحصرون العلم فيما يخضع للحس والتجربة، وما يخضع للتجربة فليس بعلم، وليس بحقيقة، بل هو عبث وهراء،

(١) المصدر السابق، ص ٧٨٥ وما بعدها بتصرف.

(٢) سورة الروم: ٣٠.

(٣) المعرفة ند مفكري مسم، د/ محمد غلاب ص ١٤٦.

وكذلك حصر -أرباب الفلسفة الوضعية- العلم والمعرفة فيما يخضع للتجربة أو المنهج الرياضي دون سواه وتحكم الماركسيون في حركة التاريخ الإنساني ومسيرته الحضارية للتغيرات الاقتصادية دون سواها وحصر الفرويديون العلاقات الإنسانية في العلاقات الجنسية دون غيرها، بل إن الإشراقيين في محيط المسلمين حين حكموا منهجهم الروحي في المادة ركبوا الشطط وانحرفوا عن تعاليم الإسلام مثل أصحاب الحلول والاتحاد ووحدة الكون...، والمتكلمون حين التزموا المنطق الأرسطي في علم الألوهية خاصة انحرفت عقائدهم، بل إن المعتزلة وأهل السنة رغم أنهما يعتبران الوحي والعقل مصدرين للعلم اختلف في النتائج العقدية لاختلاف المنهج المستخدم عند كل منهما.

٢- التناسب بين مجال المعرفة وبين إمكانية العقل:

إن الإسلام لا يريد أن يبدد طاقة العقل دونما فائدة، ولا يريد أن يزج بالعقل في مجالات من البحث هي فوق قدراته، مما يجعله يتخبط ولا يصل إلى علم صحيح، ولذلك حظر الإسلام على العقل جوانب من المعرفة؛ لأنها فوق طاقته مثل البحث في كنه الذات العقلية، أو البحث في كنه عوالم الغيب، أو البحث في حقيقة الروح، أو البحث في موعد قيام لساعة.

ولذلك يدعو الإسلام العقل للبحث في المجال المعرفي الذي يستطيعه وبالقدر الذي يتحمله وبالمنهجية التي تصلح له.

ثانيا: ثمرات التزام نظرية المعرفة الإسلامية [١]:

تتنوع الثمرات المحققة بالتزام نظرية المعرفة الإسلامية لتشمل المعرفة ذاتها وطالبها:

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٧ وما بعدها بتصرف.

أما الثمرات التي تتصل بذات المعرفة فهي جملة ضوابط معرفية -أربعة- لا تتحقق مجتمعة في غيرها وهي:

١- أن يكون مجال المعرفة في مقدور العقل الإنساني:

ويتحقق ذلك بحصر معرفة الغيبيات عن طريق الوحي الإلهي، فالوحي يكمل للإنسان دائرة المعرفة، فيخبره بما هو خارج قدراته من عوالم الغيب المختلفة مع ملاحظة أن الوحي حينما أخبرنا عن الغيبيات إنما بين صفاتها وآثارها ولم يخبرنا بكنهها وجوهرها.

وفي الحديث الصحيح: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله عز وجل» [1] كما حدد الوحي أن مصدر التشريع هو الله تعالى، الذي له الخلق والأمر، فالمشرع الحقيقي لابد أن تتوافر فيه أربعة أمور:

أ- العلم الكلي المحيط بالإنسان.

ب- معرفة حقيقة الخير والشر والنفع والضرر.

ج- العلم المحيط بالمستقبل.

د- الحيدة والتجرد عن الأهواء.

فهل تتوفر هذه الشروط لأحد من البشر؟

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ١٧٨٨ وقال: الحديث بمجموع طرقه حسن عندي والله أعلم.

إنها صفات العليم الخبير القائل سبحانه: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (١).

٢- النزاهة وإنكار الذات:

المعرفة الإسلامية تلزم طالبها إدراك الحق واليقين مهما كان مصدرها، فالحكمة ضالة المؤمن أني وجها حصلها، فلا هوى ولا عصبية لباطل، ويقول ابن تيمية رحمه الله: « الحق يقبل من كل من تكلم به، ونسب إلى سيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه قوله: «اقبلوا الحق من كل من جاء به وإن كان كافرا» أو قال: «فاجرا واحذروا زيغة الحكيم » (٢).

٣- التثبت والتحقق في كل خطوة من خطوات تحصيل المعرفة:

نهى الإسلام عن إتباع الظن القائم على التخمين والوهم، واعتمد على اليقين والتثبيت في القول والقبول، مع مراعاة أصول التحصيل المعرفي فيحرص على عدم الجمع بين الشيء ونقيضه، وربط النتائج بأسبابها مع عدم إغفال السبب الأول خالق الوجود في كل سبب يدركه، ثم اعتبار سنن الله الجارية وكيف أنها تشمل سواها من أنواعها، اعتبارا بلسابق لسعادة اللاحق فالعلة الواحدة إذا وجدت تحت ظروف متشابهة أنتجت معلولا متشابها بإذن الله تعالى.

٤- التأني في إصدار الأحكام:

---

(١) سورة لمائدة: ٥٠.

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٢/ ١٠١).

تلزم المعرفة الإسلامية صاحبها عدم نفي الشيء لعدم الوقوف عليه، فما أعجز الإنسان -وما هو بعيد- اليوم قد يصير قريبا غدا، والقاعدة تلزم أن عدم الوجدان لا يستلزم عدم الوجود [١]، لذلك كان علماء المسلمين إذا بحثوا عن شيء أو عن مسألة ولم يجدوها فيقولوا: بحثنا عنها في مظانها فلم نجدها، أو لم نقف عليها، وكانوا يقفون عند حدود بشريتهم، ويقرون بمحدودية علمهم، ومقدار عجزهم عن الإحاطة والعلم الشامل فجزاهم الله خيرا، ولو أن الغربيين والمفتونين بالعلم التجريبي التزموا التثبت والتأني، بل لو التزموا المعيار الاستدلالي المعتمد لديهم، لما أنكروا الدين والغيب فهم يعتمدون على درجات أربع للاستدلال، حيث يخضع كليا للمشاهدة، أو يخضع جزئيا مثل كروية الأرض، أو لا يمكن مشاهدة ذاته، وإنما يشاهد آثاره، مثل الإليكترون والتيار الكهربي، أولا الاستدلال بالقرينة الجائزة وهكذا يتناقض رجال العلم التجريبي مع أنفسهم، فهم حينما يرفضون الدين يتعللون بأنه لا يخضع للتجربة، وحينما يقيمون الأدلة على رفضه لا يستخدمون التجربة رغم إدعائهم بأنه لا قيمة لأي حكم يصدر من غير التجربة، ولا يوجد علم صحيح إلا من خلال المشاهدة والتجربة، وما أكثر الأخطاء التي تنتج عن السرعة والحماقة [٢].

الثمرات الخلقية المتصلة بطالب المعرفة الإسلامية [٣]:

(١) ضوابط المعرفة -الشيخ عبد الرحمن الميداني ص ٣٦١.

(٢) راجح الدين في مواجهة العلم -الأستاذ/ وحيد الدين خان- ترجمة ظفر الدين خان، ص ٩٠٦.

(٣) انظر مناهج البحث العلمي وضوابطه في الإسلام -د/ حلمي صابر ص ١٧٣، وما بعدها.

إن طالب المعرفة الإسلامية فيه آداب أخلاقية وضوابط معرفية تبح سمات شخصية لا تحقق لسواه أهمها:

أ- اقتران المعرفة بالنية الصالحة والعمل النافع:

فلا مقصد له بطلب المعرفة سوى مرضاة الله وتحصيل الإيمان به والخشية منه، ولا يقبل على علم لا ينفع كالسحر والكهانة وغيرهما ولا يستخدم المعرفة فيما يضر ولا ينفع، ولا يقبل المحرم شرعا باسم العلم والفن، فلا إباحية ولا مجون، ولا تعد على المحرمات.

ب- عفة اللسان والقلم:

طالب المعرفة الإسلامية بعيد عن المهاترات والشتائم وفرض الرأي بالقوة، وحمل الناس على نظام فكري وعملي محدد باسم العولمة أو غيرها بل عليه أن يعمل على إظهار الحقيقة وعرضها بأدلتها وبراهينها الميسرة للإقناع بها، ولا يجوز له سب المخالفين: فق قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[1].

ومما تجدر الإشارة إليه أن علم الجرح والتعديل ليس في نطاق هذا الخطر؛ لأنه من باب بيان الحق، وتمييزه عن الباطل، وليس من باب التفحش في القول.

ج- الأمانة في نسبة الفضل لذويه:

(١) سورة الأنعام: ١٠٨.

إن المعرفة الإسلامية تلزم أصحابها الصحة إن كان ناقلا، والدليل إذا كان مدعيا، فتوثيق المعرفة ونسبة الأقوال لأصحابها والنقول لمواضعها دون إيهان أو إدعاء حق شرعي لازم، حتى لا نبخس الناس أشياءهم، وبذلك وجهنا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع» (١) وقال: صلى الله عليه وسلم «إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ معقده من النار» (٢).

فلا يصح أن يسرق جهد غيره، أو يجحده أو ينسب لنفسه ما لم يحصله، وشتان بين طالب المعرفة الإسلامية وبين غيره ممن جحدوا فضل المسلمين الذين لولاهم لظلوا في عصورهم المظلمة لليوم.

د- الاعتراف بمحدودية الإنسان والتواضع لله عز وجل:

إن المعلوم بالضرورة أن إمكانية الإدراك الإنساني في عالم الشهادة قاصره ومحدود، وهو عاجز في عالم الغيب، ومهما أوتي الإنسان من معرفة وعلم فهناك المزيد مما لم يقف عليه، وكل التقدم العلمي اليوم في الأمم الكبرى وأرباب الحضارات المادية ما هو إلا من باب العلم الكشفي الذي يدرك جزءا يسيرا من أسرار الخلق الإلهي في الكون،

(١) رواه ابن ماجه في سننه، أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

ومهما تقدمت العلوم والمعارف فلن يستطيع أحد أن يدعي لنفسه أنه أوجد شيئا من العدم، فحري بالإنسان ألا يغتر وألا يتكبر وجري به أن يتواضع لخالقه، ويعترف بعجزه وضعفه، وأنه لولا الله ما كان الإنسان شيئا، فهو خالقه وواهبه العقل وسائر المعرفة وهاديه، وهو القادر على أن يسلبه بعد أن أعطاه لو شاء.

وهذا يجعل صاحب المعرفة الإسلامية في تقدم ونماء وازدياد منها مع مصداقية وواقعية واستقامة وصدق الله إذ يقول: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾[1].

هـ- الربط بين المعرفة والإيمان بالله تعالى:

المعرفة الإسلامية تصل صاحبها إلى الله، وكل معرفة لا تصل صاحبها بالله فهي مذمومة، وقد كان علماء المسلمين الأوائل أصحاب إيمان يدفعهم إلى العلوم الدنيوية شتى، فهذا جابر بن حيان الكيميائي المشهور كان يسمى جابر الصوفي لكثرة زهده ونسكه، وهذا ابن رشد الفقيه المعروف صاحب كتاب « بداية المجتهد المقتصد » وهذا الخوارزمي مبتكر علم الجبر واللوغاريتمات، فقد وصل إلى هذا الكشف العلمي وهو يؤلف رسالة في عالم الفرائض والوصايا، وهذا الفخر الرازي صاحب التفسير الكبير والكتب العديدة في علم الأصول كان من أشهر أطباء زمانه وهذا ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأول من أشار على الحويصلات الرئوية والشرايين التاجية كان أحد فقهاء الشافعية الكبار.

---

(١) سورة النحل: ٧٨.

وغيرهم كثير فما أحوجنا إلى أساتذة العلوم الطبيعية والاجتماعية والتربوية والنفسية ومناهج وطرق التدريس بحيث تتعانق المعرفة والإيمان، وتعود الأمة الإسلامية لمكانتها التي لا تصح لغيرها قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾[1].

ومما سبق تدرك أن المعرفة الإسلامية من المزايا في مناهجها والثمرات في طلابها ومحصليها ما لا يدرك بعيدا عنها، وهذا في حد ذاته يوجب على القطاعات التعليمية والمعاهد في بلاد المسلمين ضرورة التمسك بها والدعوة إليها والحرص على إعداد الأجيال المسلمة وفق قواعدها ومناهجها.

وليس من سبيل لإصلاح أحوال العالم الإسلامي بخاصة والعالم بأسره بعامة ولا إلى حل مشكلات الحياة بعيدا عنها، فهلا تعانقت المعرفة الإسلامية بإيماننا وواقعنا في الحياة، الله خير مأمول وهو نعم المولى ونعم النصير.

مدى حاجة البشرية للمعرفة الإسلامية:

خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا، خلقه لغاية محددة ألا وهي عبادة الله وحده، وفطرهم على فطرة التوحيد بعد أن أخذ عليهم العهد والميثاق وهم في عالم الغيب قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا

(١) سورة الإسراء: ٥١.

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١].

ومن قبل علم أباهم آدم عليه السلام وأسجد له ملائكته ، ثم شاءت إرادته تعالى بعد أن أهبطه إلى الأرض في صراع بين الخير والشر حتى يرث الله الأرض ومن عليها أن تتعاقب رسله في خلقه فما خلت أمة إلا وجاءها من الله تعالى نذير وبشير حتى لا يكون لأحد على الله حجة بعد الرسل.

قال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[٢].

إن الله تعالى يعلم خلقه وهو خبير بهم يعرف مداركهم وكوامن النقص فيهم فهم خلقه كما أراد، قال سبحانه:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٣].

لذلك أرسل رسله حيث إن الإنسان ليعجز عن إدراك الحق وإحكام الأمر، فمهما أوتي من فهم وقدرة فإن كل ما يجده يعتريه النقص والخطأ بنسبة ما.

إن الله تعالى خلق الإنسان مركبا من شهوة وعقل وجعل له إرادة واختيارا فإن غلبت شهوته واتبع هواه ضل وغوى كما أخبرنا رب العزة فقال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ

(١) سورة الأعراف: ١٧٢، ١٧٣.

(٢) سورة النساء: ١٦٥.

(٣) سورة الملك: ١٤.

يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[١].

وهذا الجانب يحجب عن بني الإنسان من الخير الكثير وترى ذلك مع العاقل الحصيف إن استولت عليه شهوة أو سيطر عليه هوى فأنظره حينما يغضب مثلا أو يحب أو حين يقوي أو يضعف أو حين يجوع أو يشبع أو على أي حال وقد انقاد ببصرهم نفسه ومصلحة ذاته أين هو من الحق وأين الحق منه؟ إنك لن تعرف منه ساعتها إلا الجحود والميل عن الحق والبغي والفساد وقطيعة الأرحام لن تدرك معنا طيبا ولا خلقا فاضلا وما ذلك إلا تجسيد وركون إلى نفسه ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[٣]، نعم.. لكن كيف الوقاية؟ إنها في منهج الله تعالى وحده.

ثم انظر إلى من غلب عقله شهوته إنه كذلك في حاجة ماسة إلى من يوجهه ويبصره فالعقول قاصرة متفاوتة متباينة عاجزة، أما قصورها فإن العقل إن بلغ الكمال البشري فإن له مدى لا يتعداه وقدرة لا يتجاوزها فالمعقولات والمحسوسات التي تخضع لسلطان العقل والإدراك بالنسبة إلى ما يجب الوقوف عليه لصلاح العاجل والآجل قليل من كثير، ثم إن العقل يقصر في جانب من جانبي العلم ولا دراية له بالثاني مطلقا ولا سبيل لأن يهتدي إليه مهما كانت قدرته اللهم إلا أن أهدى إليه.

---

(١) سورة القصص: ٥٠.

(٢) سورة الحشر: ٩.

(٣) سورة التغابن: ١٨.

أقسام العلم:

والعلم بهذا المعنى -أي ما يقع تحت إدراك العقل أم لا- قسمان علم غيب وعلم شهادة قال تعالى: ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[١].

أولا: علم الغيب وله صورتان:

١- علم غيب مطلق:

وهو ما استأثر الله بعلمه ولم يطلع عليه أحدا من خلقه فلا سبيل لأن يدركه العقل أو يقف عليه البتة -وذلك مثل ما لله تعالى من كمالات وأسماء لم يوحها لأحد من خلقه أو كعلم الساعة واليوم الآخر على نحو قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[٢].

٢- علم غيب نسبي: وهو ما أطلع الله عليه بعض خلقه وذلك لأن الإنسان يعلم ويجهل ويذكر وينسى وقد فضل الله بعض الناس على بعض قال تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ** ﴾[٣].

وأئمة الناس في هذا المقام الأنبياء والمرسلون الذين اصطفاهم الله وأوحى إليهم وأمرهم بالبلاغ عنه حتى يبصر الناس ويتعلموا وهذا المقام فسيح جدا بحيث يمل كل الناس شريطة أن يكون له أصل ويقين فمتى التمس الإنسان أسبابه حصله؛ لأن

---

(١) سورة التغابن: ١٨.

(٢) سورة لقمان: ٣٤.

(٣) سورة يوسف: ٧٦.

الإنسان لم يولد عالما إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم؛ وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتق الشر يوقه» [١] وإن كان في الحديث ضعف فإن معناه صحيح ما توافرت الأسباب والله يعطي من يشاء يقول الله تعالى موجها النبي صلى الله عليه وسلم لالتماس ذلك ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[٢].

ويقول سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[٣].

ثانيا: علم الشهادة:

وهو ما يخضع لحواس الإنسان ومدركاته مما له صورة في الواقع، وهو كذلك يقصر العقول في إدراكه لتفاوت الناس في هذا الميدان، كما هو معلوم مشاهد فقد قسم الله بين الناس معيشتهم بحيث يحتاج الجميع إلى الجميع، وهم متفاوتون في كل شيء بل الإنسان ذاته ليقصر عقله في وقت ويزكو في وقت آخر ورضي الله عن سيدنا عمر لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم توعد من قال بوفاته وقال من قال إن محمدا – صلى الله عليه وسلم– مات قتلته بسيفي، فلما خرج سيدنا أبو بكر رضي الله عنه على الناس وقرأ عليهم قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ

(١) أخرجه الدراقطني والخطيب في التاريخ عن أبي الدرداء، وقال السيوطي حديث ضعيف.

(٢) سورة طه: ١١٤.

(٣) سورة النساء: ١١٣.

الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾[١].

وبعدها قال عمر كغيره: فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر الصديق يومئذ [٢]، وهذا القصور في الإدراك مرده إلى تفاوت العقول أو إلى تأثير الشهوات على العقول، فمن غضب أو أفرط تفاعله مع المواقف قصر إدراكه وتفلت منه بيانه وأزلف لسانه، فحبك الشيء يعمي ويصم، وغضبك مانع من إدراكه، وهواك موجه لتفكيرك ولو جانب الحق والصواب، ومن هذا أيضاً موقف سيدنا عمر رضي الله عنه فقد قصر إدراكه للآية الكريمة لغلبة الغضب عليه واستبداده به.

وبذلك نرى كثيرًا من الناس تقصر عقولهم عن إدراك الأشياء التي سبق لهم إدراكها، هذا فضلاً عن قصورهم عن إدراكها أصلاً، كذلك نجد العقول متفاوتة كما وكيفا وحالا فما يدركه هؤلاء يعجز عن إدراكه الآخرون.

إن رجال أول سفينة فضاء بعد هبوطهم على سطح القمر أدرك أحدهم دلائل وجود الله فيها فيما رأى من آيات الله في الآفاق وأنكر الثاني وقال لم أر شيئاً.

إن ما يحسبه الإنسان خيراً يراه غيره من بني جنسه شراً بل إن الفرد نفسه قد يرى الشيء ويستقبحه مع أنه هو نفسه مع ذات الشيء قد استحسنه من قبل، بل إن الإنسان قد يظن لقصر إدراكه الخير شراً أو العكس وصدق الله تعالى إذ يقول:

---

(١) سورة آل عمران: ١١٤.

(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ١٧٣).

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

وكذلك نجد العقول متباينة فما يحبه هذا يكرهه ذاك ولو أنك خيرت جماعة ما في أمر ما لما اتفقت كلمتهم أبداً إلا أن أجبروا على أحد الوجهين بصورة ما، وصدق القائل:

ومن في الناس يرضى كل نفس

وبين هوى الناس مدى بعيد

فلو صلى الإمام مثلاً لقال من خلفه -بعضهم- أطلت ولقال فريق آخر قصرت، ولو تحدث فيهم لقال بعضهم أصبت ولقال الآخرون ما أصبت، إنك قد تجد ما يعده البعض سبباً للثناء وصورة للإجادة محكوم عليه من نفر آخر بأنه غث ليس فيه ما يذكر.

وكذلك العقول تعجز تماماً عن إدراك ما استأثر الله بعلمه فضلاً عن عجزها إدراك أسباب سعادتها إن أعيت نفسها في البحث عن كنه الأشياء -البحث فيما وراء المادة- أو وقعت أسيرة الشهوات والأهواء ومن هنا نقول إن العقول القاصرة والعاجزة والمتباينة والمتفاوتة بين البشر في إدراك وجه الصواب فيما هو مشاهد لحري بها أن تعجز تماماً عن إدراك الغيب أو ما يتصل به.

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦.

إن الكون وإن كان كتاباً مفتوحا يدرك منه الناس وجود خالقهم ويبصرون من خلاله آياته لهم إلا أنه لا ينفع إلا أولى النهي وأرباب العقول التي سلمت من عوامل الشتات والتخلف، ورغم ذلك فلو سلم العقل من كل ما يقصر به أو يشذ عن جانب الصواب فأني له أن يدرك ما لله من صفات أو أسماء أو كيف يعرف ما يذكره به أو به يشكره بل كيف يعرف الفرائض وما عليه فعله وما يجب اجتنابه فضلاً عما يتصل بالغيب الذي يجب الإيمان به.

من أجل ذلك كله كان إرسال الرسل ضرورة لتعريف الناس وتبصيرهم حتى تذهب كل حجة للمخالفين لهدي الله تعالى وكانت رحمة الله وعدالته سباقة قال تعالى: ﴿ **مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾ (١).

فأرسل الله رسله يبصرون الناس بالحق ويرشدونهم إلى الخير وينذرونهم عوامل الفساد ولقاء ربهم فحرروا العقول وهذبوا الطباع وشرحوا الصدور وصفوا الأرواح ونقوا النفوس وطمأنوا القلوب فخلصوا من رق الشهوات وأسر الأهواء وتطهروا من رجس الشيطان ودنس النقائص والرذائل وأدركوا عوامل ثباتهم على الحق وتجنبهم للباطل كل ذلك بفضل رسالة المرسلين وجهد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

---

(١) سورة الإسراء: ١٥.

أما وقد ختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم كما أخبرنا سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (١).

فمن بعد انتقاله -إلى الرفيق الأعلى- يصلح ما أفسد الناس ويقيم ما اعوج بسبب الناس؟ إنهم دعاة الحق وورثة الأنبياء الهداة المصلحين والمرشدون الناصحون والدعاة العاملون أرباب المعرفة والنظر، ولعل الواقع يشهد بالحاجة الملحة إلى جهد هؤلاء الذين اصطفاهم الله تعالى بحمل كتابه وميراث الدعوة وأعبائهم بعد رسوله.

إن المعرفة الإسلامية والدعوة إلى الله تعالى وكلمة التوحيد وصفات الله تعالى ومنهج الحق كان ذلك كله عامل توحيد للكلمة والصف وإصلاح للفاسد والمعوج، أما اليوم فكثير من الناس يلعن بعضهم بعضاً جدلا في الله بغير علم، ولهذا يرفع ويزيد من قدر الحاجة إلى المعرفة اليوم من أجل أن ينفي الدعاة عن الدين تحريف المغالين وتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين، ولعل ثلاثتهم واقع مشاهد بين غال ومفرط مع أن طرفي الأمور شطط وخير الأمور الوسط، وهؤلاء الغلاة شر بكل المقاييس يخرجون بغلوهم هذا على روح الدين وفطرة الخلق، والدين يقبل ذلك حيث إن من خصائصه رفع الحرج قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢).

(١) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٢) سورة الحج: ٧٨.

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية.

٣- لسان العرب لابن منظور.

٤- القاموس المحيط، محي الدين محمد بن يعقوب فيروز أبادي.

٥- معجم مقاييس اللغة.

٦- مختار الصحاح للإمام محمد بن أبي بكر الرازي.

٧- مصادر لمعرفة في الفكر الديني والفلسفي، د/ عبد الرحمن ابن زيد الزبيدي.

٨- مدخل إلى الفكر الفلسفي، يوخينسكي، ترجمة د/ محمود حمدي زقزوق، مكتبة الأنجلو المصرية.

٩- دراسة في الفلسفة الحديثة، د/ محمود حمدي زقزوق.

١٠- مبادئ الفلسفة أ. س. رايويرت ترجمة أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١- نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، د/ راجح عبد الحميد الكردي، مكتبة المؤيد.

١٢- تفسير ابن كثير، مختصر، مؤسسة الرسالة ط ١١ سنة ٢٠٠١م.

١٣- الإنسان والعقل، د/ نايف معروف، مؤسسة الشيخ موسى، بيروت، ط ١١ سنة ١٩٩٥.

١٤- البعد الرابع في نظرية المعرفة، د/ مصطفى غلوش، بدون.

١٥- تاريخ الفلسفة العربية، د/ صليبا.

١٦- معيار العلم، الغزالي.

١٧- الإرشاد، الجويني.

١٨- أصول الدين، البغدادي.

١٩- نظرية المعرفة، د/ زكي نجيب محمود.

٢٠- الصوفية والعقل، د/ محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجبل، بيروت.

٢١- أساس البلاغة، الزمخشري.

٢٢- نظرية المعرفة والوحي، د/ عبد الله بركات، بحث مقدم إلى رابطة الجامعات الإسلامية بإندونيسيا.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٢
المبحث الأول: المعرفة في اللغة والاصطلاح.	٤
أ- المعرفة في اللغة.	٤
ب- المعرفة في الاصطلاح.	٤
المبحث الثاني: تاريخ نشوء نظرية المعرفة.	١٩
المبحث الثالث: القرآن ونظرية المعرفة.	٢٢
المبحث الرابع: المسلمون ونظرية المعرفة.	٢٥
المبحث الخامس: أهمية البحث في المعرفة.	٢٨
المبحث السادس: أهم المباحث الرئيسة في المعرفة.	٣٧
المبحث السابع: سبل المعرفة الإنسانية.	٤٠
المبحث الثامن: أنواع المعرفة.	٤٧
أ- المعرفة الحسية.	٤٧
المقصود بالمعرفة الحسية.	٤٨
أهمية المعرفة الحسية.	٥١
مكونات المعرفة الحسية.	٥٢
مجالات المعرفة الحسية وخصائصها وتقييمها.	٥٣
موقف الإسلام من المعرفة الحسية.	٥٩
ب- المعرفة العقلية.	٦٨

الموضوع	الصفحة
مجالات المعرفة وتقييمها.	٧٦
خصائص المعرفة العقلية.	٨١
١- الضرورة.	٨١
٢- صدق التعميم أو الكلية.	٨٢
موقف الإسلام من المعرفة العقلية.	٨٣
ج- المعرفة اللدنية (الإشراقية).	٨٥
المعرفة الصوفية.	٨٦
الإشراق والصوفية.	٨٧
من يقف عند الإشراق.	٨٧
من قال بالإشراق كمرحلة.	٨٨
طرق تحصيل المعرفة في المنهج الإشراقي.	٨٩
د- المعرفة الوحيية.	٩٥
المراد بالوحي.	٩٦
الوحي في الاصطلاح.	٩٨
ضرورة الوحي في المعرفة.	٩٩
الوحي ممكن في نظر العقل.	١٠٠
لا كفاية في العقل.	١٠١
الحاجة إلى الوحي في الاعتقاد.	١٠١
الحاجة إلى الوحي في التشريع.	١٠٢

الموضوع	الصفحة
خصائص المعرفة الوحيية.	١٠٣
١- الاختصاص في طريقها.	١٠٤
٢- ربانية المعرفة النبوية في مصدرها.	١٠٥
٣- الثبات.	١٠٦
٤- الشمول والتكامل والعموم والخلود.	١٠٦
٥- التوازن.	١٠٧
٦- الإيجابية.	١٠٧
٧- الواقعية أو العملية.	١٠٨
نظرية المعرفة الإسلامية مميزاتها وثمرتها.	١٠٩
أولا: المميزات.	١٠٩
التلاؤم بين المعرفة والمنهج المستخدم.	١٠٩
التناسب بين مجال المعرفة وبين إمكانية العقل.	١١٠
ثانيا: ثمرات التزام نظرية المعرفة الإسلامية.	١١٠
أن يكون مجال المعرفة في مقدور العقل الإنساني.	١١١
النزاهة وإنكار الذات.	١١٢
التثبت والتحقق في كل خطوة من خطوات تحصيل المعرفة.	١١٣
التأني في إصدار الأحكام.	١١٣
الثمرات الخلقية المتصلة بطالب المعرفة الإسلامية.	١١٤
اقتران المعرفة الإسلامية بالنية الصالحة والعمل النافع.	١١٤

الموضوع	الصفحة
عفة اللسان والقلم.	١١٤
الأمانة في نسبة الفضل لذويه.	١١٥
الاعتراف بمحدودية الإنسان والتواضع لله تعالى.	١١٦
الربط بين المعرفة والإيمان بالله تعالى.	١١٦
مدى حاجة البشرية للمعرفة الإسلامية.	١١٨
أقسام العلم.	١٢٠
المراجع.	١٢٧
الفهرس.	١٢٩- ١٣٢